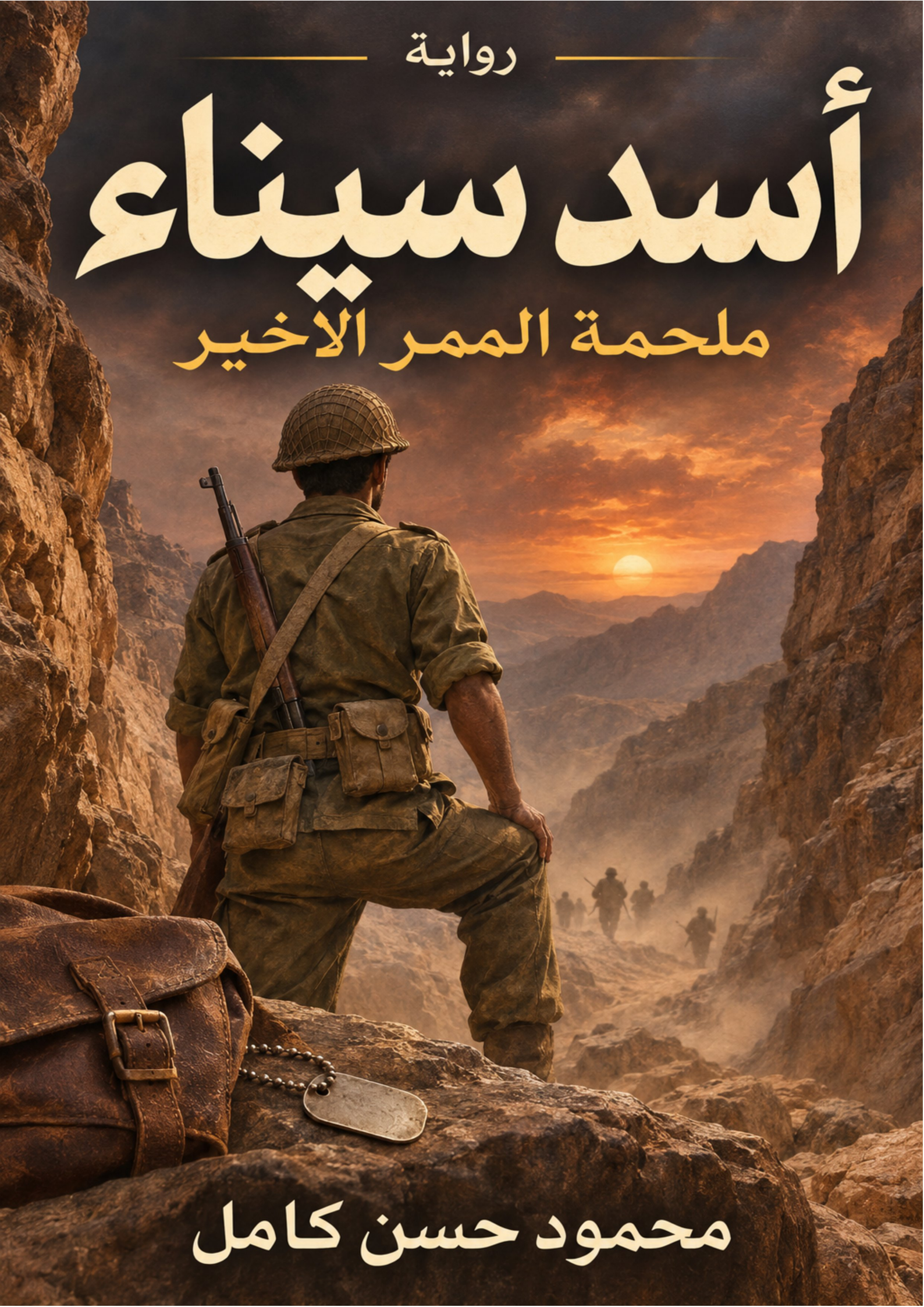
رواية

أسد سيناء

ملحمة الممر الأخير



محمود حسن كامل

الأمانة

برلين ـــ ألمانيا

أكتوبر 2023

كان المطر قد توقف منذ دقائق، لكن شوارع برلين ظلت تحتفظ بآثاره؛ أرصفة لامعة تعكس ضوء السماء الرمادية، وأوراق أشجار مبتلة تتناثر مع كل هبّة ريح. بدا مبنى السفارة المصرية هادئًا خلف بوابته الحديدية، كأن شيئًا في ذلك الصباح البارد لا يستحق أن يقطع سكونه.

توقفت سيارة سوداء أمام البوابة.

في المقعد الخلفي، ظل رجل يحدق في المبنى من خلف الزجاج. لم يتحرك في البداية، ولم يبدُ عليه أنه ينتظر أحدًا. كان في أوائل الأربعينيات من عمره، أنيق المظهر، يرتدي بدلة رسمية داكنة، تعلوها سترة أنيقة، وقد بدا شعره

المرتب بعناية متخللًا بخيوط رمادية خفيفة عند جانبيه. كانت ملامحه هادئة، وعيناه عميقتين، فيما أضفى شحوب وجهه على مظهره مسحة من الجدية والوقار. وفي يده حقيبة جلدية صغيرة، قبض عليها كما لو كان يخشى أن تفلت منه.

كان اسمه إلياس روزنبرغ.

رجل أعمال يهودي قضى سنوات طويلة في ألمانيا، اعتاد أن يتنقل بين المدن والصفقات دون أن يلتفت كثيرًا إلى ما يتركه خلفه. لكن زيارته للسفارة المصرية في ذلك الصباح لم تكن لها صلة بتجارة أو عمل، ولم يكن وراءها موعد أو دعوة.

فتح باب السيارة ونزل.

أغلقه خلفه، ثم وقف لحظة أمام المبنى. رفع عينيه إلى لافتة السفارة، وأطال النظر إليها. بدا كمن يراجع في داخله قرارًا اتخذه منذ زمن، لكنه لم يجد الشجاعة لتنفيذه إلا الآن.

أخيرًا، أخذ نفسًا عميقًا واتجه نحو البوابة.

:اعترضه أحد رجال الأمن

إلى أين؟ —

:أجابه إلياس بهدوء

.أريد مقابلة أحد المسؤولين —

هل لديك موعد؟ —

.هز رأسه

.لا —

:تأمله الحارس بشيء من التحفظ، ثم سأله

وما سبب الزيارة؟ —

:ضم إلياس الحقيبة إلى جسده، وقال

لدي أمانة أريد تسليمها إلى السفارة — المصرية.

لم يبدُ على الحارس أنه اقتنع تمامًا،

تبادل رجل الأمن نظرة سريعة مع زميله، ثم طلب من إلياس الانتظار. ابتعد خطوات قليلة، وأجرى اتصالًا داخليًا، لم يلبث بعده أن عاد

إليه وأشار له بالاقتراب. لكن الطريق إلى الداخل لم يكن مفتوحًا بعد؛ فقد كان عليه أن يمر أولًا عبر نقطة التفتيش. وضع إلياس حقيبته على جهاز الفحص، ثم فتحها أمام رجل الأمن، الذي تفحّص محتوياتها قبل أن يسمح له بالعبور. وبعد لحظات، ظهر أحد موظفي السفارة لاصطحابه إلى الداخل.

في إحدى الغرف الداخلية بالسفارة، جلس إلياس في انتظار المسؤول الذي سيقابله. وضع الحقيبة على ركبتيه، وظل يمرر أصابعه فوق جلدها المتشقق، كأن لمسه يعيده إلى ذكرى بعيدة.

انفتح الباب، ودخل رجل في منتصف العمر. أغلق الباب خلفه، ثم جلس قبالته.

قال المسؤول:

— قيل لي إنك ترغب في مقابلتي.

أومأ إلياس.

— نعم.

— تفضل، كيف يمكنني مساعدتك؟

لم يُجب إلياس فورًا. أنزل الحقيبة من فوق ركبتيه ووضعها على الطاولة، ثم أخرج ظرفًا أبيض عاديًا، لا يحمل اسمًا ولا عنوانًا، ودفعهما معًا نحو المسؤول.

قال:

— هذه أمانة.

نظر المسؤول إلى الحقيبة، ثم إلى الظرف.

— وما المطلوب مني؟

— أن يصلا إلى مصر.

عقد المسؤول حاجبيه قليلًا، ثم أعاد النظر إلى الأشياء الموضوعة أمامه.

— وما الذي بداخلهما؟

ظل إلياس صامتًا.

أعاد المسؤول سؤاله، بنبرة أكثر جدية:

— هل يتعلق الأمر بشخص ما؟

رفع إلياس عينيه إليه، وقال بهدوء:

لا أعرف إن كان من الأفضل أن تعرف — الآن.

ومن الأفضل أن يعرف إذن؟ —

خفض إلياس عينيه نحو الظرف، ثم قال:

الشخص الذي سيقرأ ما بداخله —.

ساد صمت قصير بينهما. لم يحاول المسؤول كسره، بينما بدا إلياس كأنه استنفد كل ما جاء ليقوله. وبعد لحظات، نهض من مقعده.

استوقفه المسؤول:

لحظة... ألن تشرح لي شيئًا؟ —

استدار إلياس نحوه. بقيت ملامحه جامدة، لكن عينيه كانتا تحملان ثقل سنوات طويلة، سنوات بدا أنه قضى معظمها وهو يؤجل هذه اللحظة.

قال:

لا أستطيع —.

لماذا؟ —

تردد قليلًا، ثم أجاب:

لأنني وعدت —.

لم ينتظر سؤالًا آخر. فتح الباب وغادر، تاركًا خلفه حقيبة صغيرة وظرفًا أبيض، وأسئلة لم يمنح صاحبها إجابة واحدة.

ظل المسؤول واقفًا في مكانه، يتابع الباب المغلق بعينيه. لم يكن يفهم ما حدث، ولا لماذا اختار ذلك الرجل أن يقطع كل هذه المسافة ليسلّم أمانة ثم يرحل دون تفسير.

عاد إلى الطاولة وجلس أمام الحقيبة.

كانت صغيرة، قديمة، وقد تشقّق جلدها عند الحواف. تفحّص قفلها المعدني قبل أن يفتحه بحذر. صدر عن القفل صوت خافت، ثم رفع الغطاء وتوقف.

لم يكن بداخلها الكثير.

أشياء قليلة، لكنها وُضعت بعناية واضحة، وكأن صاحبها أراد أن يحفظها من الزمن أكثر مما أراد أن يخفيها عن العيون.

مد المسؤول يده وأخرج بطاقة عسكرية قديمة. بهتت صورتها حتى كادت ملامح صاحبها تختفي، أما الاسم فظل مقروءًا بصعوبة.

سيد زكريا خليل.

تأمل الاسم لحظة، ثم أعاد البطاقة إلى الضوء، محاولًا تمييز ما تبقى من تفاصيلها.

بعدها أخرج سلسلة معدنية ثقيلة، باردة الملمس، وقد نُقشت على قرصها عبارة:

جندي مجند — سيد زكريا.

قلبها بين أصابعه، ثم أعادها إلى الطاولة.

وفي قاع الحقيبة، وجد جوابًا قديمًا. كان الورق مصفرًا، وقد تجعدت أطرافه وتآكلت بفعل مرور خمسين عامًا. وعلى جزء منه استقرت بقعة داكنة، لم يعد من السهل تمييز لونها، لكنها بدت كأثر دم جفّ منذ زمن بعيد.

ظل المسؤول يتأمل الجواب دون أن يفتحه.

ثم وقعت عيناه على الظرف الأبيض الذي تركه إلياس بجوار الحقيبة. تناوله وقلبه بين يديه،

فوجد على وجهه عبارة قصيرة كُتبت بخط واضح:

إلى مصر.

فتح الظرف بحذر، وأخرج الورقة المطوية بداخله.

بسطها أمامه، وأخذ يقرأ ما كُتب فيها. لكن بصره توقف عند كلمتين في منتصف الورقة، كُتبتا بخط واضح، وكأن صاحبهما أراد لهما أن تبقيا ظاهرتين مهما طال الزمن.

أسد سيناء.

ظل المسؤول محدقًا في العبارة.

لم يكن يعرف بعد حكاية ذلك الجندي، ولا سرّ الحقيبة التي حملت متعلقاته طوال تلك السنوات، ولا لماذا اختار رجل يهودي أن يعيدها إلى مصر بعد نصف قرن.

لكنه أدرك أن ما وصل إلى يديه لم يكن مجرد أمانة قديمة.

كان بداية حكاية ظلت مدفونة خمسين عامًا

ما لا يُقال

الأقصر — خريف 1970

كان الليل في الجنوب لا يهبط دفعة واحدة، بل يتسلل كحبر ثقيل في مسام الجدران.

كانت رائحة الأرض المروية لتوّها تملأ الحوش، ممزوجة برائحة الطمي الرطب الذي خلّفه النهر. وفي الزاوية البعيدة، كان سراج الجاز يبعث ضوءًا شاحبًا، ترتجف شعلته كلما عبر نسيم بارد من جهة الغرب، فتتحرك الظلال على جدار الطين.

جلس سيد القرفصاء، يُحكم ربط نعل حذائه القديم بسلك معدني دقيق. بدت ملامحه هادئة، لكن أصابعه لم تكن بالثبات نفسه؛ ارتجفت قليلًا وهو يشد السلك، ثم توقف لحظة قبل أن يعاود عمله. كانت يداه، اللتان اعتادتا تقليب التربة وفأس النخل، تتحركان ببطء، كأنه يحاول تأجيل لحظة الرحيل.

على مسافة خطوتين، وقف أحمد متكئًا على عمود النخلة الذي يسند سقف البيت. لم ينطق بكلمة، واكتفى بمراقبة أخيه وهو يربط حذاءه. كان فارق السنتين بينهما لا يكاد يُذكر، لكن سيد ظل دائمًا السند الذي يلجأ إليه أحمد، والرجل الذي اعتاد أن يجد عنده إجابة حين تضيق به الأمور.

تنحنح أحمد، ثم قال بصوت كاد يبتلعه الصمت:

— القطر مش هيمشي غير مع الفجر يا سيد.. لسه بدري.

لم يرفع سيد رأسه؛ كان يخشى أن يرى أخوه في عينيه ما يحاول إخفاءه. شد العقدة الأخيرة بأسنانه، ثم بصق طرف السلك الصغير في التراب:

— الفجر بيجي على غفلة في بلادنا يا واد.. اللي يصحى وراه ما يلحقش خطوته.

ساد الصمت من جديد؛ لم يكسره إلا نقيق الضفادع القادم من الترعة، وحفيف جريد النخل في البستان.

خرجت زينب من مدخل المندرة. لم تكن تضع كحلها كالعادة، وكانت شيلتها السوداء مشدودة حول عنقها. وقفت عند الحد الفاصل بين ضوء السراج وعتمة الممر، تحمل صرة قماشية صغيرة، بداخلها خبز الذرة وبعض الجبن الجاف.

التقت عيناهما، ثم أشاحت زينب ببصرها. شعر سيد بانقباض في صدره؛ فقد كان يعرف أن أصعب ما في الرحيل ليس الطريق، بل الوجوه التي يتركها خلفه.

وضعت الصرة على طرف المصطبة، وقالت وهي تنظر إلى الأرض:

عمتي نايمة جوه.. بس مش نايمة —.

ابتسم سيد ابتسامة خافتة، ثم نهض:

عارف. أمك نامت عشان ما تشوفنيش وأنا — طالع.. وأنا هطلع عشان ما أشوفش دموعها فتكسر عزمي. الحساب بيني وبينها خلصان يا زينب.

نظرت زينب إلى أحمد، ثم أعادت بصرها إلى صرة الطعام، وقالت بصوت جامد:

— بس من غير حسّك هتضيق الدار واسعة..

اقترب سيد منها خطوتين، ثم توقف. تأمل وجهها للحظة، وكأنه يحاول أن يحتفظ بتفاصيله في ذاكرته. لم يكن يعرف متى سيعود، ولا ما الذي ينتظره في الطريق. كان الخوف حاضرًا، لكنه لم يجد ما يقوله عنه.

التفت بنصف جسده نحو أخيه أحمد، وقال بهدوء:

— الدار ما تضيقش وفيها راجل يا زينب.

تحركت عينا زينب نحو أحمد، ثم عادت إلى سيد. مد يده وربّت على كتف أخيه الأصغر مرتين، وقال:

— النخلة اللي تقع في الغيط، بتسيب أختها مكانها.. الجذور واحدة، والميّة اللي شربنا منها واحدة. فاهم يا أحمد؟

ارتجفت شفتا أحمد، لكنه لم يتكلم. نظر في عيني أخيه، ثم هز رأسه ببطء. ظل واقفًا

مكانه، كأنه يريد أن يقول شيئًا، لكنه لم يجد الكلمات المناسبة.

أمسك سيد بسترته العسكرية المعلقة على مسمار قديم في الجدار. وقبل أن يرتديها، أخرج من جيبها الداخلي ورقة بيضاء مطوية وقلم رصاص مبريّ الرأس.

جلس على المصطبة تحت ضوء السراج. وضع الورقة فوق ركبته، وأمسك القلم، لكنه لم يبدأ الكتابة فورًا. ظل ينظر إلى البياض أمامه لحظات، ثم أخذ نفسًا عميقًا وكتب بخط يده:

« إن طال الليل يا زينب، فالفجر مش هيغلط طريقه للدار.. وإن غبت، فالأصل باقي، وما عاش من خلّى بيت أبوه ينهار».

طوى الورقة بعناية، ودسها في جيب قميصه الداخلي، بمحاذاة صدره. ثم ارتدى سترته، وألقى نظرة أخيرة على الحوش، وعلى أحمد وزينب، قبل أن يرفع عينيه نحو الأفق المظلم وراء النخيل.

كانت الريح قد اشتدت قليلًا، والسماء تنذر بعاصفة لم تبدأ بعد.

عنبر المستجدين

مدرسة الصاعقة ـــ إنشاص

خريف 1970

كانت رائحة الصوف الخشن تنبعث من البطاطين العسكرية الرمادية، ممتزجة برائحة دهان الجدران الكالح ورطوبة الأنفاس المحبوسة في مكان ضيق يضم خمسين رجلاً غريباً.

عنبر طويل، سقفه من ألواح الزنك التي كانت ترتعش بصفير مكتوم كلما لطمتها رياح الصحراء الباردة القادمة من الشرق، وأسِرّة حديدية من طابقين متراصة في خطين متوازيين لا يفصل بينهما سوى ممر خرساني متجمد.

جلس سيد على حافة السرير السفلي في زاوية العنبر، بعدما انتهى من طي بطانيته وفق التعليمات الصارمة: مستطيل متساوٍ، حوافه حادة كحد السيف.

كان يرتدي قميصه الميري الجديد، قماشه خشن وبارد على الجلد، ويفرك بأصابعه بقايا غبار رحلة القطار الطويلة من الجنوب وهو يتنفس هواء الشتاء القاسي .

إلى جواره، كان شاب نحيل يتقلب بعصبية على السرير المجاور، يضم ذراعيه إلى صدره محاولاً طرد الصقيع.

كان اسمه فتحي.

شعره مجعد، وعروق ذراعيه نافرة كأنهما في حالة استعداد دائم للاشتباك، وعيناه لا تستقران على شيء دون أن تتركا فيه نظرة غضب مكتوم.

ركل فتحي صندوق الأمانات الحديدي تحت السرير بقدمه حتى أصدر صوتاً مفاجئاً مزق صمت العنبر.

هو إيه ده؟! لا في مية دافية نغسل وشنا —
بيها، ولا حتى ريق نبلّه بعد شحططة الطريق!
!هي الصاعقة دي ملهاش صاحب؟

من السرير العلوي المقابل، تدلى رأس مستدير
ذو عينين ضاحكتين وبشرة قمحية تميل
.للصفرة

.كان إبراهيم

ابتسم إبراهيم وهو ينظر إلى فتحي من الأعلى،
:وقال بنبرة قاهرية متمهلة تفيض سخرية

اهدى يا بطل.. الصاعقة هنا مش طالبة —
حرارة، السقعة دي نعمة ده إنت بكرة من
طابور الفجر هتتمنى حبة التلج دول عشان
تبرد نار عضلاتك! بعدين إنت بتزعق ليه كأنك
نازل لوكاندة في محطة الرمل؟

:التفت فتحي نحوه شزراً، ونهض نصف نهضة

إنت بتتريق يا خفيف؟ ما تشوف مين —
!بيكلمك الأول قبل ما تنكت

بكلم مين يعني؟ نابليون بونابرت وهو — متنكر في ميري؟!

كاد فتحي يثب من مكانه متجهاً نحو سرير إبراهيم، لكن صوتاً هادئاً كسر اندفاعه من الخلف.

— اقعد يا بلدياتي.. ملوش لزمة الكلام ده.

كان سيد هو الذي تكلم.

لم يرفع صوته، ولم يترك مكانه على حافة السرير، لكن نبرته الصعيدية الغليظة كان لها ثقل أجبر فتحي على التوقف والالتفات نحوه. كانت عينا سيد ثابتتين، لا تحملان عداءً ولا خوفاً، بل ذلك الحزم الذي يُسكت الفوضى دون حاجة للصراخ.

ضاقت عينا فتحي وهو يحدق في سيد:

— وإنت مالك إنت كمان؟ صعيدي وبتعمل عليا كبير؟

رد سيد بهدوء بارد، وهو يشير بسبابته نحو باب العنبر الحديدي المغلق:

لا كبير ولا صغير.. بس الباب ده وراه — شاويش لو سمع رنة الصاج اللي ركلته برجلك دي، هيخلينا كلنا نزحف على بطننا في الحوش والتلج ده للصبح. غلك ده وفّره للي أخدوا القناة يا ابن عمي.. مش للي نايمين جنبك على نفس الحديد.

تجمّد فتحي لثوانٍ.

لمست وتراً غائراً في صدره؛ "القناة"كلمة انقبضت ملامحه، وارتجف فكه قليلاً، ثم جلس ببطء على طرف سريره، ودفن وجهه بين كفيه في صمت ثقيل.

في ذلك الوقت، اقترب شاب رابع كان يقف في هدوء قرب النافذة ممسكاً بضمادة شاش صغيرة.

كان بيشوي.

بشرته سمراء داكنة تشبه بشرة سيد، يتدلى من رقبته خيط أسود رفيع يحمل صليباً خشبياً صغيراً توارى تحت ياقة قميصه.

اقترب بيشوي من فتحي، ومد يده بالضمادة مشيراً إلى كوع فتحي الذي كان ينزف خدشاً غائراً من حافة الصندوق الحديدي:

— سيبك من السلك.. كوعك اتجرح وإنت بتخبط الصندوق. نضفه قبل ما التراب يدخل فيه والبرد يخليه يلتهب من أول ليلة.

رفع فتحي رأسه، ونظر إلى بيشوي بارتياب، ثم نظر إلى الشاش. تردد لحظة، قبل أن يمد ذراعه باستسلام:

— متشكر يا أخونا.. أصلي دمي بيفور بسرعة. أنا من السويس.. بيتنا في الأربعين اتهد فوق دماغ حاجتنا في حرب الاستنزاف، وأهلي متغربين في بنها.. جاي هنا مش عشان أسمع نكت، جاي عشان أعدّي.

هبط إبراهيم من السرير العلوي بخفة، ولم تكن على وجهه تلك الابتسامة الساخرة، بل بدت ملامحه حقيقية ودافئة كأي ابن بلد أصيل.

أخرج من جيبه لفافة صغيرة من ورق الجرائد، فتحها ليظهر بداخلها قرص حلاوة طحينية انقسم إلى نصفين.

مد يده نحوهم، وقسّمها بأصابعه إلى أربع قطع:

— حقك عليا يا سويسي.. ولا تزعل. أنا إبراهيم من باب الشعرية، نجار مسلح، ولساني متبري مني بس قلبي أبيض والله. خود حتة سكر تسند طولك وتدفيك لحد الفجر.

أخذ بيشوي قطعة وابتسم، وتناول فتحي قطعته وهو يهز رأسه معتذراً بإيماءة خفيفة.

ثم مد إبراهيم يده بالقطعة الأخيرة إلى سيد:

— وإنت يا بطل الأقصر؟ متقولش بقى إنك صايم!

ابتسم سيد ابتسامة بالكاد بانت تحت شواربه الخفيفة، وأخذ القطعة:

— تسلم إيدك يا إبراهيم. أنا سيد.. من الأقصر.

جلس الأربعة على السريرين المتقابلين في دائرة ضيقة، يمضغون في صمت، بينما كانت حبات الرمل الباردة تضرب زجاج النوافذ الخارجي برتابة مع اشتداد ريح الصحراء الشتوية.

انطفأت فجأة لمبات العنبر، معلنة موعد النوم الإجباري.

تفرقوا كلٌّ إلى سريره في الظلام الدامس، وشد سيد بطانيته الخشنة حتى صدره ليتقي البرد، واضعاً يده فوق جيبه الميري، فيما تناهى إلى مسامعه صوت إبراهيم وهو يهمس من السرير العلوي قبل أن يغلبه النعاس:

تصبحوا على خير يا رجالة. شكل الأيام — اللي جاية مش هتعدي بالساهل.

أوتار الكرمل

حيفا ـــ خريف 1970

كانت رائحة الصنوبر تنحدر من سفوح جبل الكرمل لتصطدم بملوحة البحر الأبيض المتوسط القادمة من أسفل الميناء. في شرفة المنزل الحجري القديم، كان الهواء يحمل برودة خريفية خفيفة، لكن أصابع دافيد روزنبرغ كانت دافئة وهي تتحرك بانسيابية على أوتار آلة التشيلو.

كان مغمض العينين، جسده النحيل ينحني مع صعود النغمة، ورأسه يتمايل مع رنين الخشب العتيق. بالنسبة لشاب في التاسعة عشرة من عمره، لم يكن العالم يتعدى حدود تلك النوتة الموسيقية؛ مساحة خالية من السياسة، ومن رمال الصحاري المشتعلة، ومن الخنادق الترابية.

انكسر اللحن فجأة بضربة كف ثقيلة هبطت على كتفه، مصحوبة بضحكة رنانة:

باخ مجدداً يا دافيد؟ العالم يحتفل في — الشوارع بذكرى أبطالنا، وأنت ما زلت محبوساً في القرن الثامن عشر!

فتح دافيد عينيه بانزعاج طفيف، وأبعد القوس عن الأوتار بحرص. كان الواقف أمامه صديقه ، حاملاً في إحدى يديه زجاجتي "يونا"المقرب صودا مثلجة، وفي الأخرى ورقة مطوية بعناية. كان يونا نقيضه تماماً: عريض المنكبين، شعره أشقر فوضوي، وعيناه تلمعان بحماسة لا تنطفئ.

جلس يونا على المقعد القش المقابل، ورمى الورقة على الطاولة الخشبية الصغيرة بجوار مسند النوتة:

وصل المظروف صباح اليوم.. اللواء 35، — المظليون يا دافيد! أخيراً سنترك هذه المدينة الهادئة وننزل إلى حيث يصنع الرجال التاريخ.

نظر دافيد إلى الورقة، ثم إلى يديه. تحسس باطن أصابعه الطرية والناعمة؛ أصابع رباها لسنوات لتلتقط أدق الفروق بين أنصاف النغمات. قال بصوت هادئ يشوبه قلق مكتوم:

المظليون يا يونا؟ قفز من الطائرات وزحف — في الحصى؟ أنت تعلم أن والدي كان يرتب لي مقابلة في الفرقة الموسيقية العسكرية للجيش.. هناك يمكننا أن نخدم دون أن نكسر أصابعنا.

لوّح يونا بيده مستنكراً، وأخذ جرعة من زجاجته:

فرقة موسيقية؟! هل جننت؟ نحن جيل ما — بعد سبعة وستين! العالم كله ينظر إلينا برهبة.. ألم تر صور المظليين عند حائط المبكى؟ الفتيات في تل أبيب لا يلتفتن لمن يعزف الكمان، بل لمن يحمل المظلة الحمراء والبيريه الأحمر على كتفه. ثم عن أي خطر تتحدث؟ سيناء أصبحت خلفنا، وخط بارليف ينام على القناة كجدار فولاذي.. المصريون في الغرب مهشمون، لن يجرؤ أحدهم على إطلاق رصاصة واحدة لعشرين عاماً قادمة. نزهة عسكرية لثلاث سنوات ونعود بعدها أبطالاً.

خرج والد دافيد من غرفة الصالون، يحمل في ومظروفاً مشابهاً "معاريف"يده جريدة لمظروف يونا. كان الأب، وهو من مهاجري

بولندا الناجين من الحرب العالمية، يحمل على وجهه ملامح الصرامة التي لا تقبل الجدال.

وضع المظروف أمام ابنه، ونظر إليه بنظرة ذات مغزى:

عمك خدم في المظلات، وأنت لن تكون أقل منه. الجيش هو الذي يبني هذه الدولة، والتشيلو لن يحمي الحدود. اذهب مع يونا.. لتصبح رجلاً.

ساد صمت قصير في الشرفة، لم يقطعه سوى صوت قطار البضائع وهو يعبر أسفل الميناء.

لم يجادل دافيد. مد يده الباردة، وفتح المظروف، وقرأ تاريخ الالتحاق بمعسكر التدريب بعد أسبوعين. شعر بانقباض غريب في معدته، كأن وتراً من أوتار آلته انقطع فجأة تحت ضغط زائد.

قام دافيد ببطء، وحمل آلته الموسيقية ودخل إلى غرفته. وضع التشيلو داخل صندوقه المخملي الأسود، وأغلق الأقفال المعدنية واحداً تلو الآخر بنقرات جافة خافتة.

على مكتبه الصغير، كان يرقد دفتر جلدي أسود اللون، أهداه إياه أستاذه في الكونسرفتوار ليدون فيه أفكاره الموسيقية. مد يده وسحب الدفتر، وفتح الصفحة الأولى.

أمسك بالقلم الحبر، وكتب بخط عبري منمق:

« حيفا — خريف 1970.. أغلقتُ صندوق الموسيقى اليوم. يقول والدي ويونا إننا ذاهبون إلى نزهة نصر أبدية في صحراء الجنوب، وأن الرصاص نام إلى الأبد.. لكني لا أسمع سوى صفير مريب في أذني.»

أغلق الدفتر، ودسه في حقيبة قماشية صغيرة إلى جوار ملابسه المدنية، ثم أطفأ مصباح المكتب وخرج.

كسر العظم

مدرسة الصاعقة ـــ إنشاص

شتاء 1971

انفجرت صفارة الفجر كطلقة مباغتة اخترقت سكون الظلام. ولم تكد أصداؤها تتلاشى حتى ركل الشاويش درويش باب العنبر بحذائه الثقيل، وهو يهدر بصوت يمزق النعاس من العيون:

دقيقة واحدة.. الشدة في ضهرك والسلاح — في صدرك، اللي هيتأخر ثانية هيلف طابور الرمل بالبيادة في بقه! دقيقة يا بهايم!

في لمح البصر، تحول العنبر إلى خلية من الحركة. كان سيد من أوائل من لامست أقدامهم

الأرض؛ قفز في بيادته، وربط القيطان بحركة سريعة، ثم شد حزام قايشه حول وسطه. التفت ليجد إبراهيم يصارع قفل جعبته بأصابع متجمدة، بينما كان فتحي يقفز متعثرًا في فردة حذائه وهو يلعن البرد تحت أنفاسه.

مد سيد يده، وأحكم إغلاق جعبة إبراهيم، ثم دفعه برفق نحو الباب:

— اطلع يا إبراهيم، ارمي نفسك في الطابور.. متخليش عينه تلمحك.

في ساحة التدريب، كان الهواء قاطعًا كالنصل، والصقيع يغطي حبات الرمل بلمعة فضية باهتة تحت ضوء الكشافات الضخمة. وقف خمسون مجندًا في صفوف متراصة، تتصاعد أنفاسهم في هيئة سحب بيضاء وسط الظلام.

كان الشاويش درويش يسير بين الصفوف، يحمل في يده عصا خيزران قصيرة يضرب بها فخذه بإيقاع رتيب. عيناه حمراوان كالجمر، ووجهه محفور بتجاعيد الخدمة في اليمن وجبهة القناة. وقف أمام الصف الأول، ثم توقف أمام سيد وفتحي وإبراهيم وبيشوي المتجاورين.

الصاعقة مش ميري.. الصاعقة دين! اللي — هيعدي من هنا إما راجل ميعرفش يموت إلا وهو باصص لعين عدوه، أو جثة هندفنها ورا التبة ونكمل تدريب.. مفهوم؟!

مفهوم يا فندم —!

هدرت الحناجر، لكن درويش لم يبدِ أي استجابة. أشار بعصاه نحو الميدان المفتوح:

ميدان الموانع.. زحف على البطن تحت — السلك الشائك.. ستمية متر. ونار حية فوق الروس.. اللي هيرفع رقبته شبر واحد يشيل ذنب روحه! طابووور.. ارقددد!

ارتطمت الأجساد بالأرض المتجمدة دفعة واحدة.

تسللت برودة الرمل عبر نسيج الأفرول الميري، ولم يمض وقت طويل حتى اشتعل ليل إنشاص بزئير مرعب. بدأ مدفع رشاش مثبت على برج مراقبة منخفض يطلق ذخيرة حية في مسار أفقي لا يعلو عن ظهورهم بأكثر من نصف متر.

طاخ.. طاخ.. طططططاخ!

خرجت ألسنة اللهب من فوهة الرشاش، وأضاءت الظلام بخطوط حمراء متتابعة. كان صفير الرصاص فوق الرؤوس يختلط بانفجار القنابل الدخانية التي ألقاها المساعدون على جانبي الميدان، ناشرة رائحة الكبريت والبارود.

ازحففف! بطنك تلحس الرمل! — كان — صوت درويش يعلو فوق الرصاص وهو يركض بمحاذاتهم، يضرب الأرض بعصاه قرب رؤوسهم.

كان سيد يزحف بقوة، صدره ملاصق للأرض، ويدفع جسده بساعديه وركبتيه. ساعدته سنوات العمل الشاق في طمي الجنوب على احتمال المجهود، لكن الرصاص الحي كان أمرًا مختلفًا. مع كل طلقة تمر فوق خوذته، كان قلبه يتسارع، وتضيق أنفاسه للحظة قبل أن يستعيد إيقاعها. حاول أن يركز بصره على الطريق أمامه، متجنبًا رفع رأسه وسط الدخان المتصاعد.

عن يمينه، كان فتحي يزحف بعصبية، يعض على شفته السفلى حتى كادت تدمى، ويدفع الأرض بمرفقيه في حركات متلاحقة. وإلى يساره، كان بيشوي يزحف ببطء وثبات، ممسكًا بسلاحه بحرص حتى لا تدخله حبات الرمل، بينما يتمتم بصلوات خافتة.

أما إبراهيم، فكان خلفهم مباشرة، يحاول مجاراة حركتهم. كانت يداه ترتجفان، وقدماه تتعثران في حفر الرمال كلما اقترب صوت الرصاص.

وصلوا إلى أخطر مرحلة في الميدان: شباك الأسلاك الشائكة المزدوجة، حيث لم يعد أمامهم سوى الزحف بمحاذاة الأرض، ولا تفصل ظهورهم عن الشفرات الحادة سوى بضعة سنتيمترات.

عبر سيد أولًا، ثم فتحي وبيشوي.

لكن صرخة مكتومة ومبحوحة مزقت أزيز
:الرصاص خلفهم

!سيد! الحقني يا سيد —

التفت سيد برأسه بحذر، دون أن يرفع ذقنه عن
.الرمل

.كان إبراهيم عالقًا

اشتَبك طرف قميصه الميري وجزء من بنطاله
بعقدة سلك شائك غليظة، وحين حاول التملص
بدافع الذعر، انغرست إحدى الشفرات في لحم
فخذه، فشلّت حركة ساقه. وفي تلك اللحظة،
كان الرشاش يقترب بنيرانه في دورة مسح
الميدان، وخط الرصاص المتوهج يزحف على
.مسافة أمتار قليلة من ظهر إبراهيم

تجمد سيد للحظة. كان يعرف أن العودة تعني تعريض نفسه للخطر، وأن أي حركة خاطئة قد تجعله هدفًا للرصاص. نظر إلى إبراهيم، الذي لم يعد قادرًا على الحركة، ثم حسم أمره. همس بصوت صارم حاول أن يخفي ارتجافه:

— متتحركش **إبراهيم!**!

دار سيد بجسده في التراب، وبدأ يزحف إلى الخلف.. عائدًا إلى قلب الشباك الشائكة.

رآه فتحي، فتوقف عن الزحف، واستدار هو الآخر بعينين مشتعلتين:

— الرشاش راجع **إنت بتعمل إيه يا مجنون؟!**!

خليك مكانك يا فتحي! غطي عليه يا بيشوي — لو المدرب لمحه! — صاح سيد بصوت مكتوم وأسنانه تصطك من هول الموقف.

وصل سيد إلى إبراهيم في اللحظة التي مرر فيها الرشاش دفعة من الرصاص فوق خوذتيهما. تناثرت حبات الرمل المحترقة فوق عنق سيد، فشعر بلسعة حادة على جلده، لكنه لم يتوقف. كانت الطلقات تضرب الأرض على مسافة قريبة منهما، ولم يكن أمامه وقت للتردد.

كان إبراهيم يبكي في صمت، وعيناه مغلقتان من شدة الذعر:

هيموتونا يا سيد.. السلك ماسك في لحمي.. — سيبني واجري إنت..

اخرس واكتم نَفَسك! ـــ قالها سيد بصوت ـــ لاهث ومختنق وهو يثبت رأس إبراهيم بيده اليسرى في الرمل حتى لا يرفعه في وجه الرصاص.

سحب سيد خنجره الميري بيده اليمنى، وأحكم قبضته على مقبضه.

كانت المسافة ضيقة لا تسمح بحرية الحركة، وشفرات السلك تلامس كتفه وتجرح قماش قميصه. مرر نصل الخنجر بين السلك الشائك وقماش البنطال، وبحركة خاطفة مزق القماش. لكن يده لم تسلم من الشفرات؛ إذ انغرست إحداها في راحة كفه، فاندفع الألم الحارق عبر أصابعه. أغمض عينيه للحظة، وزفر من بين أسنانه، ثم واصل حتى تحرر إبراهيم تمامًا.

قبض سيد على قفا أفرول إبراهيم بقوة، وسحبه إلى الأمام عبر الرمل:

ازحف ورا بيشوي.. ازحف ومتغمضش — عينك!

أفاق إبراهيم من صدمته، واندفع يزحف للأمام باستماتة، وتبعه سيد وهو يحاول حمايته بجسده حتى خرج الأربعة معًا من تحت شبكة السلك إلى ما وراء الساتر الترابي الأخير.

انتهت النيران فجأة، وحل صمت ثقيل لم يقطعه سوى لهث الأنفاس الممزقة.

هوى الأربعة على ظهورهم خلف الساتر، وراحت صدورهم تعلو وتهبط بعنف. كانت وجوههم مغطاة بطبقة رمادية من الطين والبارود والعرق. ظل سيد مستلقيًا للحظات، يحاول استعادة أنفاسه، بينما كانت يده المصابة تنبض بالألم.

التفت إبراهيم نحوه، ثم وقعت عيناه على الدم الذي يسيل من كفه ويقطر فوق الرمل.

ارتجفت شفاه إبراهيم، وحاول أن يبتسم نكتته المعتادة ليغطي على دموعه، لكن صوته خرج مكسورًا ومخنوقًا بالامتنان:

دمك ساح بسببي يا ابن عمي. ده أنا.. أنا — لسه معملتلكش أوضة النوم الزان..

نظر إليه سيد، وضغط بسبابته على الجرح النازف ليتماسك أمام لسعة الوجع، ومسح الدم في طرف قميصه، ثم ارتسمت على ملامحه المنهكة تلك الابتسامة الهادئة التي تشبه شمس الجنوب الدافئة:

جهز الخشب بس يا خفيف.. وسيبك من — دمي. إحنا دخلنا السلك أربعة، ومفيش واحد فينا هيطلع ناقص ضفر.. فاهم؟

اقترب بيشوي بهدوء، وأخرج ضمادة الشاش النظيفة من جيبه وبدأ يلف بها يد سيد برفق وإحكام، بينما وضع فتحي كفه الخشنة على كتف إبراهيم وهزّه بعنف فيه كل معاني الأخوة المكتومة:

لو علقت تاني في سلك هسيب الرشاش — يقصك نصين يا ابن باب الشعرية.. حمد الله على سلامتك يا فقر.

ضحك إبراهيم ضحكة قصيرة امتزجت ببقايا بكائه، بينما جلس سيد يراقبهم بصمت، ويده المضمدة تستقر فوق ركبته. كان الفجر قد بدأ يشق عتمة الصحراء، وراح هواء الصباح يلامس وجوههم المرهقة.

لم يعودوا مجرد مستجدين جمعهم قطار التجنيد وعنبر الصاج البارد؛ ففي هذا الطين، وتحت هذا الرصاص، خُتمت بين قلوبهم عهدة من فولاذ لا تنكسر.

مصنع الغرور

قاعدة تل نوف الجوية ـــ وسط فلسطين المحتلة

شتاء 1971

كان صوت محركات طائرات النورد أطلس العملاقة يملأ سماء القاعدة بهدير متواصل يرتجف له زجاج النوافذ الخافتة.

على رمال ساحة التدريب العريضة، كان برج الإنزال الهيكلي ينتصب كشبح معدني رمادي بارتفاع اثني عشر متراً. من قمته، كانت الحبال الغليظة تتدلى مشدودة، تصطك حلقاتها الفولاذية برنين جاف مع كل عاصفة هواء باردة قادمة من جهة البحر.

وقف دافيد في الصف، يشد قايش خوذته المبطنة تحت فكه بأصابع متجمدة.

نظر خلسة إلى كفيه؛ الجلد الرقيق عند أطراف أصابعه، الذي كان يتلمس أوتار التشيلو برقة متناهية، تشقق وخشُن، واكتسى بمسحة صفراء من بقايا زيت تنظيف البنادق وسواد البارود.

كان يقبض على حبل المظلة المشدود على صدره، شاعراً بثقل عتاد المظلات الذي يضغط على عظام ترقوته كأنه يطبق على أنفاسه.

— انتبه روزنبرغ!

جاء الصوت حاداً كالصفعة. كان الرقيب أول "أفيغدور" المائلة، يقف أمامه مباشرة، مشيراً بعصا التأشير إلى حزام الصدر الخاص بمظلته:

— هنا لا نعزف الألحان الرقيقة يا ابن حيفا! هنا نصنع الصقور التي تنقض من السماء. شد الحزام حتى تشعر بضلوعك، في الجو لن تجد وقتاً لترجو المظلة أن تفتح!

— حاضر يا سيدي! — أجاب دافيد بصوت حاول أن يجعله واثقاً، وشد الحزام بقوة جعلت صدره ينقبض.

إلى جواره، كان يونا يقف منتصب القامة، وابتسامة عريضة تملأ وجهه، وعيناه الزرقاوان تلتمعان بذلك البريق الذي تراه في وجوه الفتيان الذين يعتقدون أنهم امتلكوا العالم.

كان يرتدي حمالات المظلة كأنها رداء نصر، غير مبالٍ ببرودة الريح أو قسوة الأوامر.

قفزة الثقة.. واحد تلو الآخر! — هدر — صوت أفيغدور عبر مكبر الصوت اليدوي.

صعدوا السلم الحديدي للبرج. في الأعلى، بدا الأفق مكشوفاً؛ بساتين الحمضيات البعيدة، ومدرج الطائرات العسكرية المقاتلة التي كانت تصطف كنسور جاثمة.

جاء دور يونا؛ رمى بنفسه في الهواء دون تردد، مشدوداً إلى سلك التعليق الفولاذي، وصاح بهتاف انتشاء قبل أن يرتطم بالرمال عند القاعدة وينهض نافضاً الغبار بحركة استعراضية رشيقة.

وقف دافيد على الحافة. نظر إلى الأسفل، فشعر بدوار خفيف؛ ليس خوفاً من الارتفاع ذاته، بل من هذا السقوط المنظم الذي يجرده من إرادته. أغمض عينيه لجزء من الثانية، تذكر رنين وتر العميق في غرفته الهادئة، ثم قفز "الدو".

صفير الريح في أذنيه، ارتجاج الحبال الحارق على كتفيه، ثم ارتطام ثقيل بالأرض الرملية أعاد جسده إلى الواقع المؤلم.

نهض دافيد ببطء، يلملم عتاده وأنفاسه متلاحقة، ليجد يد يونا تمتد إليه لتجذبه بقوة:

— رائع يا دافيد! هل رأيت السرعة؟ نحن أسياد الجو! الصحراء تنتظرنا في الجنوب لنتنزه فوق رؤوسهم!

في المساء، اجتمع المجندون في قاعة المحاضرات ذات الجدران الخشبية.

كانت هناك خريطة ضخمة لشبه جزيرة سيناء وقناة السويس تحتل الحائط بأكمله، مرسوم عليها خط بارليف بخطوط حمراء عريضة تشبه قلاعاً منيعة لا تُختر ق.

وقف ضابط الاستخبارات التابع للواء المظليين، بعصاه الخشبية الرفيعة، يتنقل بنظراته الواثقة بين وجوه الجنود الشبان:

— انظروا جيداً إلى هذا الشريط المائي.. قناة السويس. غرب القناة، يقف جيش مكسور

الظهر منذ تسعة وستين وسبعة وستين. بنوا لأنفسهم بعض الخنادق، لكنهم يعلمون أن المانع المائي والسواتر الترابية لخط بارليف وراءها أسوار منيعة لا يمكن لأحد في الشرق الأوسط أن يجرؤ على تجاوزها.

طرق الضابط بالعصا فوق صورة الساتر الترابي العالي:

— إنهم هناك بلا غطاء، وبلا روح قتالية.. سلاحنا الجوي هو سيد السماء المطلق، وأنتم ذراع الردع الطويلة التي تهبط خلف خطوطهم لتمحو أي محاولة تفكير في الحركة. خدمتكم في المظلات ليست لحرب قادمة، بل لحراسة نصر كُتب وانتهى إلى الأبد.

صفق الجنود بحماسة، وعلت أصوات الهتافات في القاعة:

— المجد للمظليين! المجد للمظليين!

كان يونا يصفق بقوة، يميل برأسه نحو دافيد ويهمس بحماس:

ألم أقل لك في حيفا؟ نزهة حقيقية.. سنقضي — خدمتنا في تصوير غروب الشمس فوق رمال سيناء!

ابتسم دافيد ابتسامة باهتة، لكن عينيه ظلتا معلقتين على تفاصيل الخريطة عند ممرات الجبال الضيقة؛ تلك النقاط الوعرة في وسط سيناء التي لم تكن تبدو في عينيه كحديقة نزهات، بل كفخاخ صامتة ترقد في انتظار مجهول.

انتهت المحاضرة، وعاد الجميع إلى مهاجعهم متعبين.

انطفأت الأنوار الرئيسية، وحل الهدوء في العنبر الطويل، باستثناء صوت أنفاس الجنود المنتظمة والرياح التي تئن خلف النوافذ الزجاجية.

جلس دافيد على حافة سريره الحديدي، وسحب من تحت وسادته الدفتر الجلدي الأسود الصغير.

أخرج قلماً حبراً، وضغط بسنه فوق الورقة البيضاء تحت ضوء مصباح يدوي صغير

غطاه بيده حتى لا يلمحه الحارس. تحسست أصابعه الخشنة طرف الورقة، وكتب بخط مرتعش:

«تل نوف — شتاء 1971..

أصابعي لم تعد كما كانت، قسوة حبال المظلات ومعدن البندقية يسرقان مني آخر ما تبقى من نغم. الجميع هنا يتحدثون بنبرة واحدة.. نبرة الواثق الذي لا يرى في الغد سوى مرآة للأمس. يونا يرى السماء ملعباً، وضابط المحاضرة يرى الحرب نزهة انتهت قبل أن تبدأ.

أراقب وجوههم وأشعر أن هذا اليقين المفرط يشبه وتراً مشدوداً أكثر من طاقته.. وتراً إن أصابته ريح خفيفة، انقطع بلا رجعة.»

أغلق دافيد الدفتر بهدوء، وأعاده تحت وسادته، ثم أسند رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، محاولاً استرجاع لحن قديم تاه منه وسط صخب المعسكر.

مشروع التعايش

مدرسة الصاعقة ـــ صحراء إنشاص

شتاء 1971

كانت الشمس في الظهيرة كقرص من النحاس المحمى، ترمي بلهيبها فوق رمال الصحراء المفتوحة، كأنها تعاند برودة الشتاء القاسية التي تسكن العظام بمجرد هبوط الليل.

خمسون رجلاً، يحمل كل منهم عتاده الكامل: الشدة العسكرية الممتلئة، بندقية كلاشينكوف تزن قرابة أربعة كيلوجرامات تتدلى على الكتف المنهك، وحزام الذخيرة الذي يضغط على الخواصر. طابور المسير الطويل ـــ أربعون كيلومتراً عبر الكثبان والوديان الرملية الوعرة ـــ كان قد استنزف طاقات الجميع منذ ساعات الصباح الأولى.

في مقدمة الفصيلة، كان الشاويش درويش يتقدم بخطوات واسعة لا تلين، كأنه قُدّ من صخر الصحراء نفسه، وصوته يقطع صرير الحصى تحت الأحذية الميري:

اللي عينه تزوغ هيدفن نفسه في الرمل! —
خطوتك هي حياتك.. الصاعقة مبتشيلش جثث،
الصاعقة بتصنع رجالة تعيش على الهوا
والصبر!

كان سيد يتقدم رفاقه الأربعة، وجسده الطويل
مائل قليلاً للأمام ليعادل ثقل الشدة على ظهره.
كانت عيناه ضيقتين تحت حافة الخوذة
الفولاذية، مسمرتين على الأفق البعيد، وأنفاسه
منتظمة تخرج من صدره بصوت هادئ، يعتمد
على ذلك التجلد الفطري الذي ورثه من شمس
الجنوب وحرث الغيطان.

لكن خلفه بمسافة خطوتين، كان الوضع مختلفاً
تماماً.

كان إبراهيم يجر قدميه جراً، والبيادة الثقيلة
تغوص في الرمال الناعمة لتسرق آخر قطرة
من عزمه. وجهه القمحي اصفرّ وشحب،
وشفتان جافتان تشققتا حتى نضح منهما خيط
رفيع من الدم الجاف، بينما كانت عيناه تجولان
في الفراغ بذعر صامت كأنه يترقب الموت مع
كل خطوة.

تعثرت قدم إبراهيم في أخدود رملي، فسقط على ركبتيه، وارتطمت خوذته بحافة بندقيته برنين معدني أجوف.

توقف سيد على الفور، واستدار.

إبراهيم! — همس فتحي بغضب مكتوم وخوف حقيقي، وهو يلتفت بسرعة ليتأكد أن الشاويش درويش لا يزال بعيداً في مقدمة الطابور ولم يلتفت بعد.

كان إبراهيم يلهث بصوت مبحوح كأن رئتيه تحترقان، ويداه ترتجفان فوق الرمال:

مش قادر.. خلاص يا سيد، رجليا ماتت.. — سيبوني هنا، قول للشاويش إبراهيم مات شهيد الإرهاق.. وصيتي يا بيشوي.. علبة الحلاوة اللي قلتلك عليها لأمي.. وأوضة النوم الزان خلاص.. النجار مات في الميدان..

انحنى بيشوي بسرعة، والتقط خوذة إبراهيم من الأرض، وقال بصوت حنون وهادئ يفيض سكينة:

وحد الله يا إبراهيم، مفيش حد هيموت هنا.. — انت ابن بلد وجدع، باقي شوية ونوصل لنقطة التجمع.

اقترب سيد، وجلس القرفصاء أمام إبراهيم. نظر في عينيه الزائغتين بثبات، وبحركة خاطفة وسريعة لا تحتمل الجدال، فك أربطة شدة إبراهيم العسكرية وسحبها عن كتفيه، ثم علقها على كتفه هو فوق شدته الخاصة، ليتضاعف الوزن فوق ظهره كأنه يحمل جداراً.

شهق إبراهيم بضعف، وحاول مد يده:

يا سيد.. الشدة تقيلة عليك، هتقع إنت كمان —..

اخرس واقفل بؤك ده عشان متضيعش — ريقك على الفاضي — قالها سيد بصوت منخفض وصارم، ثم مد يده الصعيدية القوية، وقبض على معصم إبراهيم وجذبه للأعلى دفعة واحدة حتى استقام واقفا.

في تلك اللحظة، تحرك فتحي، وانتزع بندقية إبراهيم وعلقها على كتفه الآخر إلى جوار بندقيته:

امشي جنب بيشوي ورجلك مع رجله.. لو — وقعت تاني هشيلك على قفايا عشان ميرجعوناش السجن الحربي يا فقر!

أخرج بيشوي زمزميته من جرابها القماشي، ورجّها برفق.. كانت تصدر صوتاً خافتاً لقطرات قليلة متبقية. فك الغطاء، ومدها لإبراهيم:

بلّ ريقك بنقطة.. نقطة واحدة بس — متبلعهاش، مضمض بيها.

أخذ إبراهيم الزمزمية بأصابع مرتعشة، ووضع قطرة على لسانه المتيبس، كأنها ردت إليه الروح. نظر إلى وجوههم الثلاثة؛ سيد الذي يحمل وزنه وأثقاله دون أن ينحني، وفتحي الذي يحمل سلاحه بغيظ المحب، وبيشوي الذي يسانده بذراعه كأنه شقيقه الذي لم تلده أمه.

ابتلعت عينا إبراهيم لمعة دمعة حارة مسحها بطرف كمه المغبر، ثم حاول أن يستجمع سخريته القديمة ليقهر بها ضعفه، وخرج صوته مرتعشاً لكن دافئاً:

يخرب بيت غباوتكم.. لو كنت مت كان — زماني استريحت من طابور العشا بتاع المسا.. يلا يا عم سيد، خطوتي في ضهرك، وأهو على الأقل لو هقع، أقع على ضهرك العريض ده.

استأنف الأربعة مسيرهم في الصحراء، متلاصقين كجدار واحد في قلب العاصفة الترابية التي بدأت تهب من الشرق، خطوة تدعم خطوة، وكتف يسند كتفاً، متوغلين في صمت الصحراء الطويل نحو نقطة اختبار لم تكن سوى البداية

اختبار البقاء

صحراء إنشاص ـــ عمق منطقة العزل

شتاء 1971

هبط ليل الصحراء سريعًا، وانحسرت حرارة النهار كأنها لم تكن، تاركة وراءها برودة تتسلل إلى العظام.

في قاع منخفض رملي تحيط به تلال صخرية واطئة، جلس الأربعة متلاصقين داخل حفرة حفروها بنصال خناجرهم الميرية. كانت الريح تعوي فوق حافتها، وتدفع حبات الرمل الجافة نحو ظهورهم المنحنية.

كان إبراهيم يتوسطهم، يرتعد بشدة، وأسنانه تصطك بصوت مسموع. لف ذراعيه حول ركبتيه حتى كاد يضمهما إلى صدره:

يا جدعان.. صوابع رجلي مبقتش حاسس — بيها.. هو إحنا كدة متنا والروح بتطلع، ولا ده تبريد طبيعي قبل ما ندخل التلاجة؟

وضع بيشوي ذراعه حول كتف إبراهيم، وضغط عليه برفق محاولًا أن يمده ببعض الدفء:

سمّي الله واكتم نفسك في صدرك يا — إبراهيم.. البرد هنا لو سلمتله هيأكلك، قاومه.

على الجانب الآخر، كان فتحي يسند ظهره إلى جدار الحفرة الرملي، يفرك راحتي كفيه بقوة ثم

يمررهما على وجهه، وقال بنبرة غاضبة
:يحاول بها كسر وحشة الظلام

الشاويش درويش قاصد يرمينا في المقلب —
ده.. مفيش نار، مفيش غطا، وحتى الزمزميات
شربنا آخر قطرة فيها العصر.. هو فاكرنا
!معمولين من حديد؟

رد سيد من مكانه عند مدخل الحفرة، حيث كان
جسده العريض يحجب جزءًا من الريح عن
رفاقه. ضم ذراعيه إلى صدره محاولًا مقاومة
:القشعريرة التي تسري في جسده، ثم قال

لو مكنتش معمول من حديد، مكنتش دخلت —
من بوابة إنشاص يا فتحي. الحرب هناك في
القناة مفهاش بطاطين ولا شايات سخنة.. ناموا
.وبلاش كلام يضيع النفس

ساد الصمت لساعات، لم يقطعه سوى أنين إبراهيم الخافت وصوت الرياح. تقارب الأربعة أكثر، يتقاسمون ما بقي من دفء أجسادهم في العتمة، حتى بدأ خيط الفجر الرمادي يظهر خلف التلال.

مع أول ضوء، شق الصمت صوت أقدام ثقيلة تهبط المنحدر الرملي.

انتفض الأربعة واقفين. كان الشاويش درويش يقف فوق حافة الحفرة، ممسكًا بعصاه، وعيناه المحمرتان تتفحصان وجوههم الشاحبة.

اطلع يا عسكري منك له! — صاح درويش — بنبرة لا تعرف الرحمة.

قفزوا من الحفرة واصطفوا في ثوانٍ. نظر درويش إلى إبراهيم الذي كان يتمايل من شدة

الإرهاق والجوع، ثم إلى شدة سيد وبندقية فتحي. بدا أنه أدرك ما حدث بالأمس في طابور الـ40 كيلومترًا، وعرف كيف حُمِل عتاد إبراهيم ليتمكن من اجتياز الاختبار.

اقترب درويش من سيد حتى كادت أنفاسه الساخنة تلامس وجهه:

فاكرين نفسكم شطار؟ شيلتوا شدة صاحبكم — وسلاحه؟ في الميدان لما تقع مش هتلاقي حد يشيلك.. الصاعقة مبتعيش على الشفقة!

بلع سيد ريقه، وشعر بجفاف حلقه بعد ليلة البرد الطويلة. حاول أن يحافظ على ثبات صوته، وظل بصره متجهًا إلى الأمام:

مبنسيبش حد ورانا يا فندم —.

توقف درويش لثانية، وظهر في عينيه شيء من الاحترام سرعان ما أخفاه خلف ملامحه الصارمة. استدار نحو حقيبة قماشية كان يحملها جندي مساعد يقف خلفه، وأشار بيده:

هتعيشوا يعني هتعيشوا.. التعايش مش كلام!

أفرغ المساعد محتوى الحقيبة على الرمال بين أقدامهم.

تراجع إبراهيم خطوتين، وشهق برعب حقيقي وهو يمسك بذراع بيشوي:

يا نهار مش فايت! أفعى؟! يا فندم والله أنا — من باب الشعرية.. أقصى تعايش شفته في حياتي كان كشري بايت من غير دقة!

كانت على الرمال حية صحراوية صفراء رمادية (طريشة)، تتحرك ببطء من برودة الصباح، ورأسها المثلث يلتف بتربص.

هدر درويش بصوت قاطع:

اللي مش هياكل من لحم الصحراء مش — هيكمل.. قص رقبتها يا سيد، ووزع على زمايلك.. نيّ.. مفهوم؟!

تسمر فتحي وبيشوي مكانهما، وابتلعا ريقهما الجاف في صدمة.

نظر سيد إلى الحية. لم يتحرك فورًا، وبقيت عيناه معلقتين برأسها المثلث. أعادته هيئتها إلى ذكريات قديمة عن الأفاعي التي كان يصادفها في حقول القصب بالجنوب. لم يكن الخوف منها غريبًا عليه، لكنه هذه المرة لم يكن في أرض يعرفها، ولا أمام حية يستطيع التعامل معها باطمئنان.

تردد لحظة، ثم خطا نحوها بحذر. وحين اقترب، هبط بقدمه الثقيلة فوق رأسها ليثبتها في التراب، وفي حركة سريعة بسكين جيبه العسكري، فصل الرأس عن الجسد وأبعده عنهم.

أمسك بجسد الحية وبدأ يسلخ جلدها. تقاطر دمها فوق الرمال، فصرف سيد بصره للحظة، ثم عاد إلى ما يفعله.

قطع جزءًا صغيرًا من لحمها. وما إن اقتربت الرائحة من أنفه حتى شعر بانقباض في معدته، وارتفع الغثيان إلى حلقه. توقف لحظة، ثم نظر إلى رفاقه. لم يكن يريد أن يظهر أمامهم تردده، خصوصًا أن عيونهم كانت معلقة به. ضغط على فكيه، ووضع القطعة في فمه، ومضغها ببطء حتى استطاع ابتلاعها.

رفع رأسه نحو رفاقه وقال بصوت حاول أن يجعله ثابتًا:

كُل يا فتحي.. كُل يا بيشوي. الدم ده هو — اللي هيخلي عروقنا تدق.

أخذ فتحي قطعة، وأغلق عينيه بقوة وابتلعها دفعة واحدة كأنه يبتلع جمراً، بينما رسم بيشوي علامة الصليب على صدره، وأخذ قطعته وتمتم بدعاء خافت ومضغها بصلابة.

بقي إبراهيم.

كان ينظر إلى القطعة المتبقية في يد سيد بعينين جاحظتين، ووجهه يتلون باللون الأخضر، ويداه ترتجفان:

— يا سيد أبوس إيدك.. طلقني من الصاعقة دي! دي تعبان يا ناس.. تعبان كان عايش في أمان الله، إيه ذنبه يدخل بطني؟! افرض سمّه لسه شغال؟ مين يطمن نعمة ومين يقبض جمعية المعلم خضر؟!

مد سيد يده بالقطعة حتى حاذت فم إبراهيم، وقال بصوت حازم ممتزج بحنان دفين:

— سمّي وكل يا خفيف.. مفيش سم هيدخل جوفك وإنت في وسطينا. افتح بؤك.

أغمض إبراهيم عينيه بكل ما أوتي من رعب، وفتح فمه كمن ينتظر الإعدام، فدفع سيد القطعة برفق، وضرب إبراهيم كتف فتحي وهو يمضغ بصعوبة هستيرية كادت تفجر دموعه، مطلقاً صوتاً مضحكاً بين البكاء والاشمئزاز:

أهو كفرت واتعايشت أهو.. ده طعمها زي — الزفت يا سيد.. والله لو رجعت القاهرة لأعمل ثورة على بتوع الكباب والكفتة!

لم يتمالك فتحي نفسه فأطلق ضحكة مكتومة، وابتسم بيشوي بصفاء. أما سيد فظل يراقب إبراهيم، وقد بدأ التوتر يغادر ملامحه شيئًا فشيئًا.

وقف درويش يراقبهم بصمت، ثم استدار بظهره.

سار بضع خطوات مبتعدًا، ثم تمتم بصوت
منخفض لم يسمعه أحد غيره:

طالعين منها رجالة.. رجالة بجد —.

أول الغيث

القاهرة — ربيع 1971

خرج الأربعة من بوابة محطة مصر برمسيس كأنهم يخرجون إلى عالم آخر لم يعهدوه منذ شهور.

كان صخب الميدان يبتلع هدوء الصحراء؛ أبواق سيارات الأجرة السوداء والبيضاء، نداءات باعة الصحف، ورائحة الفول المدمس والبصل المحمر تتصاعد من عربات الإفطار وتختلط بعوادم الحافلات.

أفرولات الصاعقة الميري التي يرتدونها كانت مغسولة بعناية، لكن آثار قسوة إنشاص لم تغادر ملامحهم؛ وجوه لوحتها شمس النهار، وخطوات عريضة منضبطة، وحقائب قماشية تتدلى على أكتافهم تحوي ملابسهم المدنية القديمة. ثمانٍ وأربعون ساعة فقط.. هدية من قائد الكتيبة بعد اجتياز دورة الموانع والبقاء.

وقف إبراهيم في منتصف الرصيف، رفع رأسه وأخذ نفساً عميقاً ملأ به رئتيه، ثم أخرجه بزفرة

طويلة مصحوبة بابتسامة واسعة كادت تشق وجهه:

هوا القاهرة يا ناس! ريحة بنزين وطعمية — ومفيش ريحة بارود ولا تعابين ولا شاويش يصحيني بصفارة في الفجر! إحنا عايشين يا ولاد المحظوظة!

نظر إليه فتحي بطرف عينه، وهو يعدل حقيبته على كتفه:

صوتك يا فقر، الناس بتبص علينا.. إنت — مصدق إنك أخدت إجازة؟

أبص براحتي وأزعق براحتي! — رد — إبراهيم وهو يشير إلى قماشة جناح الصاعقة المثبتة على ذراعه بفخر — ده أنا ماشي ببدلة البطل اللي هيخلص على الأعداء.. ده لو المعلم خضر شافني في الحارة بالشنب والياقة دي هيديني بنته وينازلني عن إيجار الدكان كمان!

ضحك بيشوي بهدوء، ثم التفت نحو سيد الذي كان يقف صامتاً، يراقب برج المحطة وعقارب الساعة المعلقة في بهوها الكبير. كانت عينا سيد

هادئتين كعادته، لكن فيهما شوقاً مكتوماً يمتد لأميال جنوباً.

قال بيشوي بصوت خفيض:

قطر الصعيد قدامه ساعة يا سيد.. تعال — نشرب شاي صعيدي مظبوط على القهوة اللي في وش المحطة قبل ما تركب.

يدوب يا بيشوي.. يدوب ألحق أقص التذكرة — — أجاب سيد، ثم التفت إلى فتحي وإبراهيم، وربت بيده العريضة على كتف كل منهما — اسمع يا فتحي.. سلّم لي على أهلك في بنها، وبلاش غلك في الدنيا يعميك عنهم.. هما محتاجين يشوفوا ضحكتك مش زعلك.

أطرق فتحي رأسه للحظة، وابتلع غصة قديمة وهو يتذكر والده المهجّر من السويس، ثم رفع عينيه وهز رأسه بامتنان صامت:

في أمان الله يا صعيدي.. توصل بالسلامة —.

التفت سيد نحو إبراهيم، فقفز الأخير أمامه محاولاً تأدية تحية عسكرية هزلية:

متقلقش على أخوك يا بو السيد.. هروح — الحارة أكل حلتين محشي من إيد أمي، وأعدي على نعمة أرمي لها كلمتين في سرها، وأرجعلك إنشاص جاهز لأي مصيبة تانية.

ابتسم سيد نصف ابتسامة، وأمسك بياقة قميص إبراهيم برفق:

وصيتك على علبة الحلاوة وأوضة النوم — لسه ملغية، خلي بالك من نفسك عشان أمك متعيطش.

تفرق الجمع؛ ركب فتحي حافلة متجهة إلى مواقف الدلتا، وتوجه إبراهيم بخطوات سريعة ممتلئة بالحياة نحو أزقة باب الشعرية.

بقي بيشوي يرافق سيد حتى رصيف قطار الصعيد.

كان دخان الفحم والبخار ينبعث من مقدمة الجرار القديم، وركاب الصعيد يملؤون العربات بحقائبهم وقففهم. وقف الاثنان أمام مدخل العربة الثالثة.

مد بيشوي يده وأخرج من جيبه لفة صغيرة من الورق، ودسها في جيب قميص سيد الميري:

— شاش وميكروكروم نظيف.. غير على جرح إيدك في السفر عشان التراب.

نظر سيد إلى الضمادة في جيبه، ثم نظر إلى وجه بيشوي السمح:

— تسلم يا بيشوي.. البركة فيك، دايماً عينك على اللي حواليك.

ابتسم بيشوي بصدق:

— ربنا يديم المعروف يا سيد.. الصاعقة جمعتنا على موت، بس إحنا بنرجع عشان نعيش. سلملي على الأقصر وعلى النيل.

أطلق القطار صفيره الطويل، فتحركت عجلاته بصرير ثقيل فوق القضبان الحديدية. قفز سيد على درجات السلم، ووقف يلوح بيده لبيشوي الذي ظل يتابعه بنظراته حتى توارى القطار في المنعطف.

في باب الشعرية، كانت دروب الحي الضيقة تمتلئ بضحكات الصغار ورائحة نشارة الخشب الرطبة من ورش الموبيليا.

مشى إبراهيم في الزقاق رافعاً رأسه، يحاول تصنّع مشية القادة الصارمة التي رآها في أفلام السينما، والبيادة تصدر صوتاً جهورياً فوق بلاط الحارة. أطلت الوجوه من الدكاكين والشبابيك:

إبراهيم! الواد إبراهيم رجع لابس صاعقة —!

خرجت أمه من باب المنزل، شيلتها مائلة، وانهمرت دموعها وهي تضم رأسه إلى صدرها تشمه كأنها تسترد روحها:

يا كبدي يا ابني.. خسيت يا إبراهيم، هما — مبيأكلوكوش هناك ولا إيه؟!

مبيأكلوناش إيه يا أمّا بس! — قالها وهو يلتفت خلسة نحو شباك الطابق الأول في البيت المقابل، حيث انزاحت ستارة الدانتيل البيضاء تلمعان "نعمة"بهدوء، وظهرت خلفها عينا بخجل وفرحة لا تخطئها عين — ده أنا بقيت

أكل الزلط في إنشاص! الصاعقة ملهاش غير رجالة زيي!

لكن في داخله، وهو يمسك بيد أمه التي ترتجف، شعر بلسعة برد الصحراء تسري في عموده الفقري؛ كان يضحك، لكن قلبه كان يدعو في صمت أن تنتهي هذه الإجازة بسلام، وألا يضطر يوماً لأن يجعل تلك العيون تبكيه.

وفي تلك الليلة، كان قطار الصعيد يقطع ظلمات الريف بمحاذاة النيل، وسيد جالس قرب النافذة المفتوحة، يتنفس هواء طمي الجنوب الدافئ، واضعاً يده فوق جيب صدره حيث ترقد كلماته القديمة لزينب، مستعداً لوصول مع أول خيوط الفجر.

طمي الجنوب وجذور النخيل

قرية خزام ـــ الأقصر

ربيع 1971

انقشع ضباب الفجر عن مجرى النيل الهادئ، وبدأت خيوط الشمس الأولى تلامس قمم جبال البر الغربي بلون ذهبي دافئ.

هبط سيد من درجات عربة القطار المتربة في محطة الأقصر، واستقل سيارة أجرة متهالكة نحو قريته. وحين توقفت عند آخر الطريق، ترجل منها وأكمل المسافة المتبقية سيرًا على قدميه.

كانت الدروب الترابية الضيقة هادئة في ذلك الصباح، لا يقطع سكونها سوى صياح الديكة

البعيدة وحفيف سعف النخيل مع النسيم.
استنشق سيد هواء الجنوب المشبع برائحة الطمي المبتل والبرسيم، وشعر كأن صدره يتسع للمرة الأولى منذ أسابيع. لم يكن قد أدرك كم اشتاق إلى هذه الرائحة إلا حين عادت إليه.

وقف أمام بوابة الحوش الخشبية القديمة. مرر أصابعه فوق لوحها المشقق، ثم دفعها برفق، فانفتحت بصرير مألوف لم يتغير منذ طفولته.

في ركن الحوش، كانت أمه، الحاجة فاطمة، تجلس على مصطبة طينية بجوار الكانون، تشعل بعض الحطب الجاف لإعداد الشاي الصباحي. كانت شيلتها السوداء تغطي كتفيها المنحنيين، ويداها تتحركان ببطء فوق النار.

توقفت يدها وهي تضع عودًا من الحطب، والتفتت نحو البوابة، كأن قلبها استشعر خطوته قبل أن تسمعه أذنها.

سِيد؟ —

.خرج صوتها مرتعشًا بين الشك واليقين

ألقى سيد حقيبته القماشية على الأرض، وتقدم نحوها بخطوات سريعة. انحنى أمام المصطبة، وأمسك بكفيها الخشنتين وقبّلهما، ثم أسند رأسه إليهما للحظة قبل أن يضمها إلى صدره. دفنت وجهها بين كتفيه وعنقه، وانطلقت منها شهقة طويلة اختلطت فيها دموع الفرح بوجع شهور :الغياب

يا ولدي.. يا ضنايا يا سيد.. حمد الله على — سلامتك يا حبة عيني.. الدار كانت ضلمة من .غير حسك

سلمكِ الله من كل شر يا أمّا.. بخير والله —
.وفي أمان الله، جيت أطمنكم وأملى عيني منكم

من باب الغرفة الداخلية، خرج أحمد مهرولًا
وهو يشد جلبابه القصير. وما إن رأى أخاه
:حتى اتسعت عيناه، وقفز نحوه

!سِيد! جيت يا خوي؟ —

نهض سيد وضمه إلى صدره، ثم مسح على
:شعره الكثيف بحنان

كيفك يا أحمد؟ وكيف الأرض والدار؟ شايل —
الحمل زي الرجالة ولا مكسل؟

والله راجل وزي ما وصيتني يا خوي! — —
قالها أحمد بفخر وهو يشير بيده نحو الحقل

الممتد خلف الدار ـــ الغيط مروي، وحشيت البرسيم، والنخلة اللي في البحراني رمت عراجينها وزي الفل!

ابتسم سيد. أراحه أن يجد البيت كما تركه، وأن يرى أحمد قد تحمل المسؤولية في غيابه. ومع ذلك، لم يستطع تجاهل شعوره بأن الإجازة أقصر مما ينبغي، وأن يومين لن يكفياه ليعوضا شهور البعد.

بعد أن ارتدى جلبابه الصعيدي الواسع وخلع ثياب العسكر، خرج برفقة أحمد نحو الغيط.

سار حافي القدمين فوق التراب الرطب، وتوقف أكثر من مرة ليتأمل الأرض. انحنى عند طرف الحقل، وقبض بيده على حفنة من الطمي الأسود، وفركها بين أصابعه ثم قربها من أنفه. ظل للحظات على حاله، كأنه يحاول أن يستعيد شيئًا افتقده طويلًا.

كان هذا الطمي جزءًا من حياته؛ الأرض التي نشأ عليها، والتي تركها خلفه ليقف في خنادق إنشاص ويتحمل قسوة التدريب استعدادًا لحرب لم تبدأ بعد.

وقف أمام النخلة العتيقة التي غرسها والدهما الراحل عند حد الأرض. تحسس جذعها الخشن، ثم نظر إلى أحمد بعينين جادتين:

— الأرض دي يا أحمد، عرضنا.. الجدع ميسيبش شبر فيها يتبور، ولو مكنتش أنا هنا، عينك تفضل صاحية في الغيط. الزرع زي العيل، يحس باللي يرعاه.

— في عيني يا خوي.. متخافش واصل، بس إنت هترجع ميتة؟

سكت سيد للحظة. لم يجد إجابة تطمئنه أو تطمئن أخاه. كان يتمنى لو يستطيع أن يعده بعودة قريبة، لكنه لم يكن يعرف ما الذي ينتظره هناك. ابتلع ريقه، ثم نظر نحو الأفق البعيد حيث تلتقي رمال الصحراء بخضرة الوادي، وقال بصوت هادئ:

— الإجازة يومين.. وراجع لكتيبتي. هناك في حاجة بتكبر يا أحمد، ومش هرتاح إلا لما نخلص تارنا ونرجع حق البلد دي كامل.

قبل غروب الشمس، مالت الظلال الطويلة على جدران البيوت الطينية، وكان سيد يقف عند طرف المصطبة الخارجية للدار، يفرك مسبحة عتيقة بين أصابعه.

من منعطف الزقاق الضيق، أقبلت زينب تحمل فوق رأسها بلسة الماء الفخارية، قادمة من جهة الترعة.

كانت تمشي بخطوات رصينة، وثوبها الأسود الفضفاض ينساب حولها. وحين رفعت بصرها ورأته واقفًا، توقفت قدماها للحظة، ثم واصلت سيرها بخطوات هادئة، خافضة رأسها.

توقفت عند مدخل ممر دارهم المجاورة. لم ينطق أحدهما بكلمة؛ فالتقاليد هنا أثقل من الجبال، لكن العيون قالت ما لم تستطع الألسن قوله.

رفع سيد بصره نحوها. كانت نظرته تحمل امتنانًا صامتًا، وخوفًا لم يستطع إخفاءه تمامًا. لم يكن يخشى الحرب على نفسه وحده، بل كان يفكر في الذين قد يتركون خلفهم انتظارًا لا يعرفون متى ينتهي. تمنى لو كان يملك وعدًا مؤكدًا بالعودة، لكنه لم يكن يملك سوى الأمل.

أما زينب، فأمالت شيلتها قليلًا لتواري خجلها، والتقت عيناها بعينيه لبرهة خاطفة. كانت نظرتها كافية لتخبره أنها ما زالت تنتظر، وأن الوصية القديمة لم تغادر قلبها، وأن قلقها عليه لا يهدأ.

أنزلت بصرها إلى الأرض بخفر، وتمتمت بصوت خفيض رزين مر من قربه كحفيف النسيم:

حمد الله على سلامتك يا سيد.. نورت دارك —

الله يسلمك ويحفظك يا بت الأصول — رد بصوت رخيم وثابت، مشحون بدفء مكتوم ورجاء صادق.

مضت زينب إلى داخل دارها وأغلقت الباب خلفها برفق. ظل سيد واقفًا للحظات ينظر إلى الباب المغلق، ثم أنزل عينيه إلى المسبحة بين أصابعه وأكمل تحريك حباتها.

جلس على المصطبة مع هبوط العتمة، ورفع بصره إلى نجوم السماء الصافية فوق الأقصر. كان البيت قريبًا، والأرض تحت قدميه، وأهله من حوله، ومع ذلك لم يستطع أن ينسى أن إجازته توشك على الانتهاء.

تنهد بعمق. كان يعرف أن عليه العودة إلى كتيبته، وأن الطريق إلى الحرب ما زال مفتوحًا أمامه. أما هذه الأرض، وهذه الجذور، وهذا النخيل، فستظل تنتظر عودته؛ أمانة لم يكن مستعدًا للتخلي عنها.

أصداء الكونسرفتوار

حي الكرمل ـــ حيفا

ربيع 1971

كانت شمس ما بعد الظهيرة تغرق مياه خليج حيفا ببريق فضي بارد، بينما تصطف بواخر الشحن عند الميناء في سكون يشبه رسماً قديماً.

صعد دافيد درجات البناية الحجرية في شارع الصنوبر. خلع قبعته الحمراء (البيريه) ودسها في جيب سترته العسكرية، شاعراً بثقل غير مبرر في خطواته. البيادة العسكرية تصدر صوتاً جافاً فوق بلاط الرخام الأملس، صوتاً غريباً ونشازاً عن هدوء هذا الحي الهادئ.

فتح باب الشقة بمفتاحه النحاسي القديم.

استقبلته رائحة مألوفة غابت عنه شهوراً: خشب الأثاث البولندي العتيق، التبغ المجفف، ورائحة حساء الكرنب واللفت التي تطهوها والدته دائماً في نهاية الأسبوع.

مشى في الممر نحو غرفته. دخل وأغلق الباب خلفه بهدوء.

في زاوية الغرفة، بجوار النافذة الكبيرة المطلة على السفوح الخضراء، كانت آلة التشيلو قابعة داخل غطائها الجلدي الأسود، مسندة إلى الحائط كتمثال مهجور. اقترب منها بحذر، كأنه يخشى إيقاظ روح نائمة. سحب السحاب المعدني ببطء، ورفع الغطاء.

استقرت الآلة بين يديه؛ خشبها البني اللامع، والمنحنيات الرقيقة التي حفظتها أصابعه عن ظهر قلب. جلس على طرف السرير، ووضع الآلة بين ركبتيه، وأسند ذقنه إلى حافتها العلوية. رفع يده اليمنى ليمرر أطراف أصابعه فوق الأوتار الأربعة دون قوس.

"الري"ثم .."الصول"نقَرَ وتر.

لم يكن الصوت رخيماً كما عهده؛ أطراف أصابعه الخشنة والمتيبسة من شد حبال المظلات وتنظيف سبطانات البنادق بالجاز لم تعد تلتقط النبرة الناعمة. كان الجلد المتشقق يفرك السلك المعدني برنين باهت ومكتوم، كأن الآلة تعاتبه أو تتبرأ من خشونة يديه.

تنهد دافيد وأغمض عينيه، تاركاً جبينه يستند إلى خشب الآلة البارد.

انفتح باب الغرفة دون استئذان. كان والده، "ياكوف" الخمسينيات، بعينين غائرتين يملؤهما حذر مزمن، وندبة قديمة خلف أذنه اليمنى من سنوات الفرار في غابات بولندا.

نظر الأب إلى ابنه الجالس والآلة بين ركبتيه، ثم تحول بصره سريعاً إلى البزة العسكرية المعلقة على ظهر الكرسي والبيريه الأحمر.

لا تزال تضيع وقتك مع هذا الصندوق — الخشبي؟ — قالها ياكوف بالألمانية، لغته التي يلجأ إليها كلما أراد أن يكون حازماً.

رفع دافيد رأسه ببطء، وأزاح الآلة جانباً:

.كانت حياتي قبل شهرين يا أبي —

اقترب ياكوف بخطوات ثقيلة، وجلس على المقعد الصغير المقابل له. مال إلى الأمام، ووضع يده المجعدة والعريضة فوق ركبة دافيد، وضغط عليها بقوة:

الموسيقى ترف يا دافيد.. رفاهية لا نملكها. — في وارسو، كان جارنا أمهر عازف كمان في الحي، وحين داهموا المنازل لم تحمه ألحانه من رصاصة في ظهره. القوة وحدها هي ما تجعل العالم يحترم وجودك. البيريه الأحمر على كتفك هذا هو الضمان الوحيد لألا نُطرد مرة أخرى.

نظر دافيد في عيني والده المشتعلتين بخوف قديم تحول إلى قسوة:

وهل يجب أن نتحول جميعاً إلى بنادق كي — نعيش؟ ألا يوجد مكان في هذا البلد لنغمة واحدة لا تنتهي برائحة البارود؟

هز ياكوف رأسه ببرود صارم، ونهض متجهاً نحو الباب:

النغمة التي تحميك هي صوت مدفعك يا — بني. اغسل يديك وتعال لتناول العشاء، ولا تدع والدتك تراك هكذا.. إنها تريد أن تفخر ببطل، لا بفنان متردد.

في المساء، هرب دافيد من المنزل إلى مقهى الصاخب في شارع هرتسل بوسط "أتارا" المدينة.

كان يونا جالساً هناك بالفعل على طاولة خارجية، يرتدي قميصاً مدنياً نصف مفتوح كاشفاً عن صدره الأسمر، وحوله فتاتان تضحكان بملء أصواتهما وهو يروي لهما مغامرات بطولية مختلقة عن قفزات المظلات في تل نوف.

لوّح يونا لدافيد بحماس:

أهلاً بالفيلسوف الحزين! تعال واجلس، كنت — أخبرهما كيف سقطت مظلتك في حقل الشوك وكيف أنقذتك ببطولة!

ابتسمت الفتاتان، بينما جلس دافيد بصمت وطلب كوباً من القهوة السوداء. انتظر حتى

غادرت الفتاتان، فمال يونا نحوه وهو يدخن سيجارته بنشوة:

— ما بك يا رجل؟ تبدو كمن خرج لتوه من جنازة! المدينة كلها تحت أقدامنا، نحن المظليون أسياد البلاد.. استمتع بالـ 48 ساعة قبل أن نعود للصحراء!

— هل حاولت يوماً أن تتخيل ما يدور في عقولهم هناك خلف القناة يا يونا؟ — سأل دافيد بصوت خافت وهو يقلب فنجان قهوته.

أطلق يونا سحابة دخان كثيفة وضحك باستهزاء:

— بماذا يفكر مهزوم يا دافيد؟ إنهم يختبئون وراء حفرهم الرملية، يحلمون بالنجاة لا أكثر. لا تشغل رأسك بهؤلاء الفلاحين.. خط بارليف سيظل قائماً إلى الأبد، والجيش الذي كسرهم في ستة أيام لا يمكن أن يُهزم. ثق بي، خدمتنا كلها مجرد عرض عسكري طويل.

لم يجبه دافيد. كان ينظر عبر زجاج المقهى إلى وجوه المارة في الشارع؛ الجميع يمشون

باطمئنان مفرط، بضحكات عالية وثقة مطلقة تكاد تشبه التنويم المغناطيسي.

في وقت متأخر من الليل، وحين خمدت أنفاس البيت وغرقت حيفا في النوم، جلس دافيد عند مكتبه الصغير تحت ضوء مصباح خافت.

سحب الدفتر الأسود الصغير، وأخرج قلمه، ثم نظر إلى يديه الخشنتين، وكتب بخط دقيق:

«حيفا — ربيع 1971..

أبي يريدني درعاً يحميه من أشباح ماضيه، ويونا يرى الحرب كرنفالاً استعراضياً يمنحه المجد والفتيات. أما أصابعي، فلم تعد تطاوع أوتار التشيلو.

الجميع هنا سكارى بنشوة الانتصار القديم، يرقصون فوق حافة هاوية وهم يظنونها صخرة صلبة. أراقب هذا الهدوء الشديد وأشعر برعب حقيقي.. فالأرض التي تبدو نائمة قد تخفي تحت سكونها بركاناً لا ينتظر سوى شرارة واحدة لينفجر في وجوه الجميع.»

أغلق الدفتر، ووضعه في جيب سترته
العسكرية بجوار البيريه، ثم نظر نحو آلته
الصامتة في العتمة، مدركاً أن المسافة بينه
وبين ألحانه القديمة باتت تبتعد يوماً بعد يوم

.

جرح الأربعين

أطراف بنها ـــ مساكن المهاجرين

ربيع 1971

كانت عوادم حافلات الدلتا تملأ الأفق بغمامة رمادية حين ترجل فتحي على حافة الطريق الزراعي. حمل حقيبته القماشية فوق كتفه، وسار بين صفوف البنايات الإسمنتية الرمادية المتشابهة؛ كتل مصمتة أُقيمت على عجل لإيواء آلاف العائلات التي شردتها قذائف المدفعية من مدن القناة.

لم تكن هنا رائحة اليود ولا ملوحة خليج السويس التي ربت عليها أضلعه؛ فقط رائحة الطين الرطب والترع الراكدة ووجوه معلقة في فراغ الانتظار.

صعد الدرج الضيق في البلوك رقم أربعة. كانت الأبواب الخشبية الرقيقة تكاد تكشف همسات الجيران. توقف أمام الباب المكتوب عليه بالطبشور الأبيض بخط والده: "عم عبد المنعم الحلواني ـــ السويس".

.دفع الباب برفق

الشقة كانت ضيقة وخانقة؛ صالة صغيرة تضم كنبة متهالكة وصناديق كرتونية مربوطة بالحبال لم تُفرغ منذ ثلاث سنوات، كأن الأسرة تنتظر قطار الصباح ليعيدها إلى بيتها في حي الأربعين.

في زاوية الغرفة بجوار الشباك الصغير، كان والده، الحاج عبد المنعم، يجلس على كرسي من القش. رجل في أوائل الستينات، نحل جسده وتهدلت أكتافه، واضعاً يديه فوق ركبتيه، مسمراً عينيه على قطارات البضائع العابرة في الأفق البعيد كأنه ينتظر معجزة.

..يا با —

التفت عبد المنعم ببطء. بهتت ملامحه الشاحبة لثانية، ثم التمعت عيناه بوميض مفاجئ. حاول النهوض مستنداً إلى عكازه الخشبي:

فتحي؟ جيت يا ابني؟ —

اندفع فتحي نحوه، وقبل يده ورأسه، وضمه لصدره بحرقة. شعر تحت أصابعه بعظام كتفي

أبيه البارزة؛ هذا الرجل الذي كان يرفع براميل الدقيق والسكر في دكانه بالسويس كأنها ريش، صار الآن هشاً كلوح زجاجي.

خرجت أمه من المطبخ الصغير، وصيحة لهفتها تسبق خطواتها:

فتحي! يا ضنايا يا سبعي —!

التفتت ذراعاها حول عنقه، وانهمرت دموعها الدافئة فوق ياقة قميصه الميري. تفحصت وجهه المسمرّ وعينيه المحتقنتين:

خسيت يا بني.. وشك بقى ناشف زي — الحجر، هما بيعملوا فيكم إيه في الصحرا دي؟

أنا فحل وزي الفل يا أمّا، الصاعقة بتصنع — رجالة — قالها بصوت حاول أن يجعله مرحاً، لكن عينه كانت تتأمل الشقة الكئيبة، والصناديق التي تحوي ما تبقى من عمرهم: بضعة صحون، ألبوم صور أحرقت شظية نصف صفحاته، وراديو ترانزستور صغير.

جلس فتحي عند قدمي أبيه، وأخرج من جيبه لفافة تبغ ميري ودسها في يد والده:

عامل إيه في صحتك يا با؟ ورجلك لسه — بتوجعك من رطوبة الشتا؟

أشعل عبد المنعم السيجارة بأصابع مرتعشة، وسحب نفساً عميقاً، ثم أخرج دخاناً كثيفاً تشتت في ضوء النافذة الشاحب:

الرطوبة هينة يا فتحي.. الوجع في القعدة — هنا، زي الضيوف اللي طال ميعاد مشيتهم. الغريب غريب ولو فرشتله الأرض حرير. كل ما أغمض عيني، أسمع صفارة البواخر في البورت وسير العجين في الفرن.. الحارة هناك كانت حية، وهنا إحنا مدفونين بالحيا.

مد عبد المنعم يده تحت جلبابه، وأخرج خيطاً سميكاً يتدلى منه مفتاح حديدي صدئ وكبير؛ مفتاح باب دارهم في حي الأربعين بالسويس، البيت الذي هدمت قذيفة إسرائيلية طابقه الثاني في حرب الاستنزاف.

فرك الوالد المفتاح بين إبهامه وسبابته بحسرة تمزق القلب:

المفتاح ده مبينزلش من رقبتي يا فتحي. —
خايف أموت قبل ما الباب يتفتح.. خايف نندفن
.في طين الغربة والتراب اللي مش ترابنا

قبض فتحي بقوة على ساق والده، واشتعلت
عروق رقبته بالغضب. شعر بتلك النار القديمة
التي تحرقه دائماً في معسكر إنشاص تشتعل في
صدره من جديد. تذكر رمال سيناء الممتدة
خلف القناة، وتذكر سخرية العدو من الساتر
.الترابي

نهض فتحي واقفاً، وتلاقت عيناه بعيني أبيه
:بنظرة قاطعة لا تحتمل الشك

مش هتموت في الغربة يا با.. ومفتاحك ده —
هيدخل كالوّنه وتلفه بإيدك. أنا مروحتش
الصاعقة عشان ألبس بدلة واتمنظر بيها.. أنا
رايح أفتح الطريق للبيت. البيوت اللي اتهدت
فوق روسنا ملهاش غير تمن واحد: دمهم قصاد
.كل طوبة وقعت

نظر الأب إلى عينين ابنه المشتعلتين؛ لم يرَ
فيهما طيش الشباب، بل حقد المقاتل الذي لا

يهدأ إلا بالقصاص. وضع يده المرتجفة على ذراع فتحي وضغط عليها:

— متفرطش يا بني.. ولا ترجعلي إلا وإنت رافع راسك وراسي، أو يجيبوك ملفوف في علمك.. غير كدة ملكش عيش هنا.

— عهد عليا يا با.. السويس راجعة، والمفتاح هيرجع لمكانه.

في المساء، جلس فتحي وحده فوق سطح البناية الإسمنتية، يراقب حقول القليوبية المظلمة. أخرج سكين جيبه العسكري، وراح يحفر على مقبض خشبي قديم كان يحمله معه اسم حي الأربعين حرفاً حرفاً، وعيناه مسمرتان باتجاه الشرق؛ حيث القناة، وحيث الحساب المؤجل الذي لا بد أن يُدفع بالكامل

.

حارة العشاق

درب النوبي ـــ باب الشعرية

ربيع 1971

صوت احتكاك الفارة الحديدية بألواح الخشب الزان وصراخ المنشار اليدوي كانا يعزفان لحن الحارة الذي غاب عن مسامع إبراهيم لشهور.

للموبيليا، كانت "المعلم خضر"داخل ورشة نشارة الخشب الذهبية تتطاير مع أشعة الشمس المتسللة من الشراعة الخشبية العالية، وتختلط برائحة الغراء البلدي الساخن على موقد الكيروسين الصغير في الركن.

خلع إبراهيم قميصه الميري واستبدله بصديري قطني مغبر، ولف وسطه بفوطة من القماش الخشن. قبضت كفه على فارة الخشب الملساء ومررها فوق عارضة الدولاب الطويلة بحركة محترفة انسيابية لم تستطع خشونة معسكر إنشاص أن تمحوها من ذاكرة أصابعه.

لا لسه إيدك فيها الصنعة يا واد يا هيما! ـــ ـــ صاح المعلم خضر وهو ينفث دخان جوزته العتيقة متكئاً على مسند الكنبة الخيزران في صدر الورشة ـــ بس سامع إنك هناك بتجري في الصحرا وتنقضّ على الطيارات! ده إنت كنت بتستخبى ورايا في الحارة لما قطة تهوهو في سكتك!

ضحك الصبيان في قاع الورشة، فمسح إبراهيم عَرَقه بكتفه ورد بلهجة ابن البلد الواثقة:

يا معلمي ده كان زمان.. دلوقتي أنا فدائي ـــ ميري، أضرب القنبلة برجلي وأطفي النار بنفخة! الصاعقة عملت مني راجل حديد، اسأل فتحي ولا بيشوي، ده أنا عمود الخيمة في الفصيلة هناك!

لكن عيني إبراهيم زاغتا بهدوء نحو ركن مظلم في نهاية الورشة.

هناك كان يقف هيكل سرير ودولاب خشب زان غير مكتملين، مغطيين بقماش أبيض قديم لحمايتهما من التراب. خطى نحوهما ببطء ورفع طرف الغطاء. تحسس النقوش اليدوية

التي حفرها بإزميله على تاج السرير قبل عام "إ"كامل: وردتان متداخلتان بينهما حرفا ."ن"و

كان هذا هو حلمه كله؛ أربعة ألواح من الخشب، ومرتبة قطن، وسقف يجمعه مع نعمة بعيداً عن أهوال الدنيا.

..هيما —

جاء الصوت رقيقاً وخافتاً من وراء الستارة المعلقة على الباب الجانبي المؤدي لمدخل البيت المقابل.

التفت إبراهيم سريعاً، فخفق قلبه كطير تقف وراء حافة "نعمة"محبوس. كانت الستارة، تلف ملاءتها اللف حول قوامها الرشيق، وتغطي رأسها بطرحة حريرية سوداء، ممسكة في يدها طبقاً صغيراً مغطى بقطعة شاش أبيض، وعيناها الكحيلتان تلمعان بلهفة مرتبكة وخوف خجول.

تحرك إبراهيم بخطوات سريعة نحو الباب، وتأكد أن المعلم خضر منشغل بحسابات الدفتر، ثم وقف في مساحة الظل بين الورشة والمدخل:

نعمة.. واقفة كدة ليه؟ الحارة مليانة عيون — وناس رايحة وجاية!

مدت يدها بالطبق إليه وصوتها يتهدج:

عملتلك طبق رز بلبن بالمستكة اللي بتحبه.. — أمي قالت لي وديه للأسطى خضر، بس أنا نزلته عشانك إنت.

أخذ الطبق منها، وتلامست أطراف أصابعهما لثانية واحدة كانت كفيلة بأن تشعل دفئاً في صدره أنساه قسوة صقيع ليل إنشاص ورعب التدريبات.

نظرت نعمة إلى يديه؛ رأت الخدوش الغائرة حول مفاصله، وأثر الجروح المندملة من طابور المسير، فامتلأت عيناها بالدموع، وقالت بصوت مكسور:

خاسس يا إبراهيم.. وإيديك متبهدلة ووشك — ناشف.. بيعملوا فيكم إيه هناك في المعسكر ده؟ والله كل ما أسمع سيرة سينا والضرب في الراديو قلبي بيقف.. خايفة متتردليش يا هيما.

ابتلع إبراهيم ريقه الجاف. شعر برغبة عارمة في أن يخبرها بالحقيقة؛ أن يقول لها إنه يرتعد كل ليلة تحت البطانية الميرية، وأنه لا يريد من هذا العالم سوى أن يمسك إزميله ويبقى بجوارها في درب النوبي. لكنه نظر إلى عينيها الخائفتين وتذكر نظرة أمه، فرسم ابتسامته العريضة الساخرة ليقهر بها ضعفه:

متتردلكيش إيه يا بت؟! ده أنا أرد بلد بحالها! وبعدين مين هيدفع أقساط الزان للمعلم خضر غيري؟ متخافيش يا نعمة، ده أنا متصاحب على تلاتة رجالة يوزنوا دهب.. واحد منهم صعيدي اسمه سيد، ده ضهره لوحده يسد عين الشمس ومحدش يقدر يقربله، والتاني فتحي بيقلب الدنيا لو حد داسلي على طرف، وبيشوي ده بركة الفصيلة كلها. مفيش رصاصة هتقدر تعدي منهم وتجيلي.

مسحت دمعتها بطرف طرحتها السوداء، ونظرت إلى هيكل غرفة النوم خلفه وسألته بخفوت:

هتخلصها إمتى؟ —

نظر إبراهيم إلى خشب الزان، ثم نظر إلى عينيها بصدق حقيقي تجرد فجأة من كل مزاح:

— أول ما الأيام دي تعدي.. هاخد الإجازة الكبيرة وهاجي أدق آخر مسمار بإيدي. هدهنها لاكيه أبيض زي فستانك، والفرشة دي هتبقى ليكي يا نعمة. وحياة غلاوتك ما هيقفل باب الأوضة دي على حد غيري وغيرك.

ابتسمت من بين بقايا دموعها بخجل، وتمتمت قبل أن تلملم ملاءتها وتصعد الدرج بخطى سريعة:

— مستنياك.. ومعايا كل يوم دعوة لستنا السيدة زينب وأم هاشم إنها تحميك وترجعك ليا بالسلامة.

وقف إبراهيم يراقب أثر خطواتها حتى اختفت في عتمة السلم، ثم نظر إلى طبق الأرز باللبن في يده، والتقط نفساً عميقاً معطراً برائحة الخشب والمستكة. شد قامته، وعاد إلى جذع الزان، وقبض على فارة الخشب بقوة؛ كان يعلم أن كل ضربة صلبة يسددها الآن في الميدان أو

في الورشة، ليست إلا ثمناً لحق أن يرى هذا
الباب مفتوحاً في الغد

لمسة اليد

الوحدة الصحية بقرية دير البرشا ـــ ملوي، المنيا

ربيع 1971

كانت رائحة الفنيك وحمض الكاربليك والمطهرات تملأ طرقة الوحدة الصحية القديمة ذات السقف العالي والنوافذ الخشبية الطويلة المدهونة بالأخضر الباهت.

على طاولة الفحص الخشبية المغطاة بمشمع جلدي بني، جلس فتى في العاشرة من عمره يبكي بمرارة وشهقاته تملأ الغرفة، بعدما شق منجله لحم فخذه أثناء حصد البرسيم؛ جرح غائر تتدفق منه دماء قانية تبلل ركبتيه الصغيرتين.

وقف بيشوي إلى جواره، عاقداً ساعديه العريضين، يرتدي قميصاً خفيفاً ميرياً شمر أكمامه إلى ما بعد المرفقين. لم تبدُ على ملامحه أي رجفة، ولم يرمش له جفن أمام منظر النزيف.

بس يا سيدي.. اهدى كدة ونَفَس طويل — — قالها بيشوي بصوت دافئ ورزين.

وضع كفه العريضة فوق رأس الصبي المرتجف، وسحب باليد الأخرى قطعة قطن مغموسة بالماء المالح وصبغة اليود، وراح ينظف أطراف الجرح بحركات دائرية خفيفة وسريعة كأن ريشة تمس الجلد، لا ملقط حديدي خشن.

؛ رجل "الحكيم فؤاد"في الزاوية المقابلة، كان ستيني يرتدي نظارة طبية سميكة برباط مطاطي، يجهز خيط الجراحة والإبرة المعقوفة فوق لهب كحولي صغير. التفت الحكيم وابتسم من تحت شاربه الكث وهو يرى الصبي وقد خفت شهيقه تدريجياً:

من يوم ما جابتك أمك هنا وإنت في تالتة — ابتدائي ماسك في ديل فستانها عشان تغسل إيدك من شوك البلح، وأنا خابر إنك مش هتفارق الأوضة دي.. كبرت يا بيشوي، بس لسه إيدك بتعرف تسبق الوجع زي ما علمتك.

ابتسم بيشوي بملامحه الصافية وهو يمد يده ليتسلم الإبرة المعقوفة:

— كنت بتزعقلي لما أرمي الشاش الوسخ على الأرض يا دكتور، بس علمتني أقف صلب ومخافش من منظر الحَمار.

أمسك حافتي الجلد بإبهامه وسبابته بإحكام وثبات لا عهد له بالتردد، وغرس السن بدقة متناهية، رابطاً الغرزة الأولى ثم الثانية، في ثوانٍ معدودة كأنه يخيط ثوباً عادياً. مسح أثر الدم المتبقي، وغطى الجرح بلفافة شاش ناصعة، ثم ربت على كتف الصغير:

— قوم يا بطل، بكرة ترجع تجري في الغيط.

خرج الصبي مع أمه التي شكرتهما بامتنان، وظل بيشوي يغسل يديه فوق الحوض الحجري بالماء والصابون، يراقب اختطاف الرغوة للون الأحمر وانحدارها في مجرى الصرف.

وقف الحكيم فؤاد يمسح عدستي نظارته بطرف بياضه الطبي، وهز رأسه وهو يتأمل بيشوي بملامح تجمع بين العتاب والمحبة:

يعني نازل من نار معسكرات الجيش واخد يومين إجازة ترم فيهم عضمك وتنام في داركم، تقوم تسبق الشمس وتجيلنا هنا تشيل المشارط وتمسح الدم؟! هو إنت مبتعرفش ترتاح يا ابني؟ —

ابتسم بيشوي وهو ينشف أصابعه بالمنشفة الخشنة، وقال بنبرة هادئة تخرج من أعماقه بعفوية تامة:

الراحة مش في النوم يا حكيم.. أنا روحي اتربت في السراية دي، وعيني اتعودت إن طالما ربنا مدني حيل وفيه جرح مفتوح قدامي، مقدرش أدير ضهري وأمشي. لو قعدت في الدار وشفت حد من أهل البلد بيتوجع وممدتش إيدي أساعده، أحس إن عيشتي ملهاش لازمة. —

تنهد الحكيم واقترب من المكتب الخشبي المكدس بالدفاتر القديمة، واضعاً أمامه كيسين من القماش يحويان شاشاً معقماً وعلباً معدنية صغيرة:

طول عمرك قلبك سابقك.. دول اللي طلبتهم، مطهرات وشاش إكسترا. بس ناوي —

على إيه هناك؟ التدريب قاسي وناس الجيش ليهم أطباؤهم.

أخذ بيشوي الكيسين ودسهما في جيب حقيبته الميرية بهدوء، ثم رفع عينيه نحو الحكيم وقال ببساطة:

لما الدنيا بتقوم نار، الدكتور بيبقى بعيد يا حكيم.. والجدع بيحتاج اللي جنبه في الحفرة يمد إيده قبل ما دمه يصفى على الرمل. الواحد هناك سلاحه في إيده، بس قلبه في الشاش ده.

هز الحكيم رأسه بفهم دون أن يزيد كلمة، وربت على كتف بيشوي بامتنان.

خرج بيشوي من باب الوحدة الصحية إلى شمس العصر المائلة؛ كان الهواء القادم من جهة النيل يحمل رائحة الطمي والبرسيم الندي. تحسس الصليب الخشبي الصغير المستقر تحت ياقة قميصه، وشد حزام حقيبته، ومضى بخطى ثابتة نحو محطة القطار ليعود إلى معسكره

•

عهد الصخر

معسكر الصاعقة ـــ إنشاص

صيف 1971

سكون ليل المعسكر لم يقطعه سوى صرير مروحة حديدية عتيقة تدور ببطء في سقف العنبر المرتفع.

فوق بطانية ميرية مفروشة في الممر الفاصل بين الأسرة الحديدية، جلس الأربعة في دائرة متقاربة. بدت على وجوههم ملامح أيام الإجازة الخاطفة، لكن البيادات المغبرة التي انتعلت مجدداً حسمت نهاية كل استرخاء.

وضع كل منهم ما تبقى في قاع حقيبته؛ تمر قناوي جاف وأقراص عيش شمسي قاسية جلبها سيد من الأقصر، ولفافة فطير وجبن وضعهما بيشوي في المنتصف، وقرطاس ورقي يحوي حلاوة طحينية دسّه إبراهيم بين الأطباق، بينما انشغل فتحي ببرد نصل سكينه العسكري بحجر شحذ صغير، وعيناه مسمرتان في اللاشيء.

كسر بيشوي قرص العيش الشمسي برفق، وقسمه أربعة أجزاء متساوية، ومد يده لفتحي أولاً:

— سمّي وكل يا فتحي.. السويس راجعة راجعة، بس بدراع يشد، مش ببطن فاضية وبال سارح.

رفع فتحي عينيه، والتقط كسرة الخبز بابتسامة متعبة سرعان ما انطفأت:

— مش سارح يا بيشوي.. بس قعدة المساكن تخنق. شفت أبويا ماسك مفتاح دارنا في رقبته كأنه هيضيع من الهوا.. قسماً بالله ما ليا عين أرجعله تاني إلا وإحنا معدّيين المية دي وواخدين التار تالت ومتلت.

ربت سيد على كتف فتحي بيده العريضة، وجاء صوته الهادئ كضربات دف قديم:

— التار مش هيضيع يا ابن عمي، بس الميدان مش عايز غل أعمى.. الميدان عايز قلب ميت وعقل صاحي. إحنا الأربعة بقينا حبل واحد، لو واحد فينا رخى، الباقيين هينقطعوا وراه.

التقط إبراهيم قطعة حلاوة، وحاول بابتسامته القاهرية المعتادة أن يخفف من وطأة الهواء المشحون:

كلو كلو ورموا عضمكم يا جدعان، ده — الشاويش خميس باين عليه ناوي يفطرنا بكرة جري في الميدان! ده أنا نعمة كانت هتعيط وهي شايفة إيدي خشنة، لو شافتني بكرة وأنا بازحف على بطني في الطين هتفركش الجوازة وتروح تتجوز حلاق الحارة!

ابتسم بيشوي بصفاء، وضحك فتحي رغماً عنه، بينما هز سيد رأسه بابتسامة متزنة تنم عن إلفة استقرت في العروق.

بعد منتصف الليل، أُطفئت أنوار العنابر وساد الظلام الدامس إلا من خيوط قمر باهتة تسللت من الشراعات العالية.

في الركن القبلي من العنبر، فرش سيد سترة أفروله الميري النظيفة فوق البلاط الإسمنتي البارد، ووقف مستقبلاً القبلة. رفع كفيه مكبراً بصوت خافت لا يكاد يغادر حلقه، وبدأ صلاته في خشوع صامت. كانت حركاته بطيئة

ورزينة، وحين سجد ألصق جبهته بالأرض طويلاً، كأنه يستمد منها ثبات الطمي في قريته بالجنوب، مستودعاً ربه أهله ورفاقه في عتمة الليل.

على بعد سريرين فقط، جلس بيشوي مطرق الرأس فوق طرف مرتبته الخشنة، يمسك صليبه الخشبي بين قبضتيه المضمومتين إلى صدره. كانت عيناه تتابعان ركوع سيد وسجوده في الظل، وشفتيه تتمتمان بصلوات دافئة ورجاء خفي بأن يحفظ هذا الجمع، وأن يثبت أقدامهم في أهوال القتال القادم.

مع انشقاق الفجر، صدح البوق العسكري، واصطفت سرايا الصاعقة في ساحة الميدان الكبرى كأعمدة من فولاذ.

وقف الأربعة في مقدمة الفصيلة، منتصبي القامات، والوجوه تلمع بعرق الصباح الباكر تحت شمس إنشاص المتقدة.

تقدم قائد الجناح، وتوقف أمام سيد زكريا. وبحركة عسكرية حاسمة، ثبت على صدره الميدانية بنسرها المحفور "فدائي"الأيسر شارة

وألوانها المشتعلة، ثم هوى بقبضته العنيفة المعهودة فوق صدر سيد.

لم يتحرك سيد قيد أنملة؛ ثبت كصخرة غرانيتية في مجرى السيل، ونظر في عيني القائد بحدة وثبات أخرسا صدى الضربة.

دار القائد، وثبت الشارات تباعاً على صدور فتحي، إبراهيم، وبيشوي؛ دقة قبضة على كل صدر، تقابلها أقدام تدق الأرض كأنها تبتلعها.

حين انتهت المراسم وصاح القائد: «صاعقة!»، ردت الحناجر بهدير واحد رجّ سماء الصحراء.

نظر الأربعة لبعضهم؛ لم تكن تلك الشارات مجرد رتب تُعلق، بل كانت عهداً صارماً بأن عودتهم للحياة المدنية صارت مؤجلة حتى إشعار آخر. انتهت أيام التدريب في إنشاص، وانفتحت أمامهم طريق الضفة الغربية للقناة، حيث تنتظرهم الحفر وخنادق الانتظار الطويل.

\

رحلة إلى سيناء المحتلة

رأس نصراني، صيف 1971

كان صوت محرك شاحنة النقل العسكرية ثقيلاً يبتلع المدى، يلتهم الطريق الصحراوي الممتد بمحاذاة خليج العقبة. امتداد قاحل من الرمال الصفراء عن اليمين، وزرقة بحرية شاسعة عن اليسار تعكس لهيب شمس الظهيرة كمرآة مصقولة. هواء لافح مشبع برائحة الملح والوقود المحترق يصفع وجوه الجنود المكدسين في الصندوق الخلفي، حيث تتمايل الخوذات الفولاذية مع كل مطب رملي كأجراس جوفاء.

في الزاوية الأقرب للمؤخرة، كان دافيد روزنبرغ يسند رأسه إلى الحديد الساخن، يغمض عينيه نصف إغماضة محاولاً عزل أذنيه عن الضجيج. أصابع يده اليمنى، المعتادة على ملمس خشب الأبنوس وأوتار الكمان الحساسة، كانت تتحرك فوق ركبته المكسوة بالقماش الزيتي الخشن في إيقاع خافت وسريع، تعيد عزف مقطوعة باخ بتركيز محموم كأنها تتمسك بطوق نجاة وسط دوامة الغبار. في

جيب سترته الواسع، كان الدفتر الأسود الصغير يضغط على ضلوعه، رفيق عزلته الذي يدون فيه ما يعجز لسانه عن النطق به.

قاطعه اصطدام كتف قوية به. التفت دافيد ليجد يونا يبتسم بملء شدقيه، ابتسامة واثقة حد الصلف، تكسوها سمرة شمس حارقة ونظرة عينين لا ترى في الوجود ما يستحق التردد أو التواضع. خلع يونا خوذته بإهمال، ممرراً كفه بين خصلات شعره الكثيف، ثم مد ساقه الطويلة المغطاة بالبسطار الثقيل ليدفع بها صندوق ذخيرة نحو منتصف الصندوق.

قال يونا بنبرة متهكمة مرتفعة تعلو صوت المحرك:

كفّ عن هذا الهراء يا دافيد! هل تحلب الهواء بأصابعك مجدداً؟ انظر حولك، لقد انتهى كابوس تدريب المظلات المرهق في تل نوف. نحن الآن أسياد هذه الجنة!

لم يرد دافيد فوراً. ألقى نظرة سريعة على الجبال الجرانيتية الحمراء التي تطوق الأفق،

بدت له كوحوش نائمة تحت سماء صامتة لا ترحب بأحد. قال بصوت مقتضب:

— إنها صحراء يا يونا. مجرد حجر وملح وفراغ.

أطلق يونا ضحكة قصيرة ملؤها الاستخفاف، ومال إلى الأمام مستنداً بمرفقيه على ركبتيه، مشيراً بسبابته نحو البحر والمدى المفتوح:

— صحراء؟ هذا ملكنا الآن. هل رأيت شواطئ مثل هذه في حيفا أو حتى في أوروبا التي يتباكى عليها والدك؟ مضيق تيران تحت أقدامنا، ومدافع المصريين الصدئة صارت خردة للذكرى. نحن هنا لنقضي إجازة مدفوعة الأجر في أفضل منتجع على البحر الأحمر، بينما جنودهم خلف القناة يختبئون في الوحل كالجرذان الجائعة.

صمت دافيد وهو يراقب رفيقه. كان يونا يمثل بدقة تلك النبرة المنتصرة المتغطرسة التي تغذيها قيادة الأركان في تل أبيب؛ يقين مطلق لا يتزعزع بأن الحرب حُسمت للأبد في ستة أيام، وأن الجيش الذي لا يُقهر قد بنى جداراً

منيعاً من المستحيل تجاوزه. كان غرور يونا ساطعاً كشمس الظهيرة، لا يترك مساحة لشك واحد.

تحركت الشاحنة في منعطف حاد ثم بدأت في رأس "الإبطاء مع اقترابها من بوابة معسكر ظهرت من بعيد منصات المدافع ."نصراني الساحلية، والأسلاك الشائكة، وأبراج المراقبة الخشبية التي يرفرف فوقها العلم في كسل، بينما تنتشر خيام المظليين بجوار منشآت القاعدة الجوية المستحدثة. على مقربة من الشاطئ المرجاني، كان بعض الجنود يتجولون بسراويل قصيرة، حاملين بنادقهم بإهمال على أكتافهم، كأنهم في نزهة صيفية لا في أرض جبهة محتلة.

قفز يونا من الشاحنة فور توقفها بخفة ورشاقة، مرسلاً سحابة صغيرة من الغبار حول حذائه. وقف نافخاً صدره، وضع يديه في خاصرته وتلفت حوله بتملك، وكأن الأرض بسعتها قد فُصلت على مقاس قامته:

مرحباً بكم في إمبراطورية سيناء! هنا لا — يوجد قادة يصرخون فوق رؤوسنا، ولا حفر

طينية. فقط شمس، وبحر، وبنادق نطلق منها النار للتسلية على طيور الماء.

نزل دافيد ببطء، يحمل حقيبته العسكرية الثقيلة على كتف واحدة، وسلاحه الآلي في يده الأخرى. حين لامست قدماه الأرض، لم يشعر بما يشعر به يونا من نشوة الامتلاك؛ بل شعر بوطأة ثقيلة، كأن رمال هذه الأرض تلفظ كل خطوة غريبة تطأها. مد يده دون وعي إلى جيبه، يلمس جلد دفتره الأسود المكتوم، وعيناه ترنوان نحو الأفق البعيد حيث تتلاقى زرقة الماء بحمرة الجبال القاسية في سكون موحش

شاطئ الأوهام

شرم الشيخ، خريف 1971

كانت أشعة الشمس الخريفية تنسكب على مياه الخليج بلون فيروزي هادئ، يتكسر عند حافة الشاطئ الرملي في رغوة بيضاء ناعمة. على مبعدة خطوات من المد، استند مقعد قماشي عريض إلى ظل مظلة شاطئية مخططة بالأزرق، تحيط به هالة من برودة زائفة صنعها صندوق ثلج بلاستيكي مفتوح، تطفو فيه زجاجات جعة مستوردة بجانب صفائح معدنية تحمل ملصقات عبرية لامعة تروج لمشروبات غازية وأطعمة معلبة.

جلس يونا ممدداً ساقيه، يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً قطنياً خفيفاً أزاح أزراره العلوية، واضعاً نظارة شمسية داكنة تحجب عينيه، بينما استقر راديو ترانزستور جلدي صغير عند مسند ذراعه. كان المذياع يبث بصوت رخيم ناعم لكنة عربية دقيقة مخارج الحروف، تفتتح السلام عليكم " :الفقرة بتحية إسلامية منمقة ورحمة الله وبركاته.. نستكمل معكم أرق

، قبل أن "...النغمات في برنامجكم الصباحي تنساب موسيقى شرقية مألوفة تمتزج عمداً بإيقاع غربي خفيف يداعب الهواء الساكن.

قريباً من طرف البساط المفروش فوق الحصى، وقف شاب بدوي في مطلع العشرين من عمره، يرتدي جلباباً نظيفاً نُسج من قماش مستحدث لا يشبه خشونة أثواب أقرانه في الوديان، وقد دس في جيبه بطاقة بلاستيكية ممغنطة كُتبت بمداد أزرق أنيق، أُخرجت له في أقل من نصف ساعة دون سؤال عن عائلته أو ماضيه. كان الشاب قد أنهى لتوه ترتيب صناديق المؤن ونقل قوالب الثلج من مؤخرة سيارة الجيب التابعة للقيادة.

أخرج يونا من حقيبة خصر جلدية حزمة من الأوراق النقدية الإسرائيلية الجديدة، فاحت منها رائحة حبر المصارف. لم ينظر إلى وجه الشاب، بل عدّ ثلاث ورقات زرقاء زاهية—مبلغ يعادل أجر شهر كامل لمن قد يعمل في حرفة يدوية بالضفة الأخرى—ورماها بخفة في الكف المفتوحة أمامه.

أتبعها يونا بإخراج علبة سجائر أمريكية فاخرة، سحب منها لفافة وقدمها للشاب مع قداحة معدنية تشتعل بلهب أزرق صغير، قائلاً بلهجة عربية طليقة لا تخلو من طرف لسان ساخر:

اشرب يا سليمان.. لماذا التردد؟ حافلة المساء ستنزل إلى إيلات بعد ساعتين، وهناك في الميناء ستجد ما لا تراه عيون الشيوخ في خيامهم. ما دامت جيوبك ممتلئة، فالأرض كلها واسعة أمامك.

التقط الشاب الورقات النقدية ودسّها في جيب صدره، بجوار البطاقة الشخصية الجديدة. أشعل اللفافة بهدوء، وأطلق نفثة دخان رقيقة نحو زرقة البحر المفتوح. كانت عيناه تتنقلان بين لمعان زجاجات الجعة في صندوق الثلج، والمذياع الذي يواصل بث أغنيته العربية الحنونة من تل أبيب، وبين جبال الجرانيت الصامتة خلف المعسكر. لم تكن في نبرته بهجة، ولا في وقفته خضوع معلن، بل كان ارتباك خفي يغلف حركته، كمن يجد نفسه يسير فوق رمال متحركة مريحة الملمس، لكنها تسحب قدميه ببطء عن كل ما كان يعرفه.

تمتم الشاب بكلمات شكر مقتضبة، ثم استدار ليلحق بظل سيارة النقل المتجهة شمالاً.

على بعد أمتار قليلة، تحت سقف مظلة خشبية متهالكة تخص نقطة مراقبة قديمة، كان دافيد روزنبرغ يجلس القرفصاء. كان يرتدي بزته العسكرية كاملة، وزر سترته مغلق حتى الرقبة رغم دفء الهواء. كانت أصابعه النحيلة تمسك بقلم رصاص، بينما استقر دفتره الأسود الصغير مفتوحاً فوق ركبتيه.

كان دافيد يراقب تفاصيل المشهد بدقة تشبه رصد نغمات نشاز داخل معزوفة محكمة:

لم يرَ في مشهد يونا والفتى مشهد تشغيل عادي ولا كرم رفقاء سلاح، بل رأى خيوط شباك حريرية تُنسج في صمت. رأى كيف تُستبدل عادات الصحراء وصرامتها ببريق السلع الجاهزة، وأوراق النقد التي تدفع الفتى للابتعاد عن مجالس قبيلته ليقضي ليلته بين أضواء الصخب والملاهي. رأى المذياع الذي لا يطلق قذائف، بل يسرق الألفة ويفرغ الذاكرة من معناها بنعومة بالغة.

استدار يونا نحو دافيد، وتناول رشفة طويلة من زجاجته، ثم أشار بظهره نحو الغرب، حيث ترقد الضفة الأخرى من القناة خلف سلسلة الجبال البعيدة، وقال بابتسامة متكاسلة:

انظر يا فنان.. هكذا تُدار الصحراء. لا — حاجة لأن تطلق رصاصة واحدة على رأس أحد، حين يمكنك ببساطة أن تجعل حياتهم القديمة تبدو كأنها كابوس مغبر يريدون الاستيقاظ منه. بضع سنوات أخرى، ولن يتذكر هؤلاء إن كان هناك طريق يربطهم بالقاهرة أصلاً.

ظل دافيد صامتاً. انحنى قلمه فوق الورقة البيضاء في الدفتر الأسود، يخط كلمات مقتضبة، بحروف مضغوطة:

إنهم لا يبنون جداراً من الأسمنت هنا، بل " > يبنون سياجاً من الوهم. يطعمونهم من يد مسمومة بالرفاهية، ويظنون أن الروح تُستبدل ببطاقة هوية ملساء وبضع ورقات نقدية. يظن يونا أن النهر يُنسى إن قدمت للظمآن ماءً مثلجاً في كأس ملونة.. لكن هذا الصمت الذي يلف وجوههم ليس قبولاً، بل هو ذلك الفراغ

الموحش الذي يسبق الانهيار. نحن نزرع غفلتنا
".في أرض لا تغفر لمن يستبيح حرمتها

مشروع الحرب

مشارف إنشاص، شتاء 1971 – 1972

كان الصقيع قبل بزوغ الفجر يعضّ في العظام، وضباب رمادي كثيف يتهادى فوق مجرى مائي صناعي تم شقه ليحاكي عرض قناة السويس وتياراتها. على الضفة الأخرى، انتصب جبلٌ من الطين والرمال المدموكة بزاوية ميل حادة تتجاوز الخمسين درجة، تعلوه ألواح خشبية ثقيلة وأسلاك شائكة تحاكي تحصينات خط بارليف. رائحة المازوت المنبعث من محركات المضخات تختلط بطمي الأرض الرطبة في جو مشحون كبارود رطب ينتظر شرارة.

داخل الخيمة الميدانية، كان سيد يقف مصلوب القامة كعمود خرساني في مدخل الضوء الشحيح. لم تكن عيناه تغادران رجاله؛ كان يزن كل حركة ونَفَس في الفراغ الصغير. على يمينه، كان فتحي منحنياً فوق صندوق خشبي، يمرر سكينه على الحجر بحركات قصيرة

وعنيفة لا تهدأ، وفكه مشدود كأن أسنانه ستتحطم من الغيظ المكتوم، عيناه مثبتتان في نقطة مظلمة لا يرى سواها. وإلى جواره، كانت أصابع إبراهيم ترتجف وهي تحاول إحكام عقدة سلم الحبال؛ سقطت العقدة مرتين، فتنحنح ليداري اضطراب ركبتيه، وتمتم بضحكة متوترة خافتة وهو يمسح كفيه في بنطاله:

هو إحنا لو روحنا السبتية نشتري خشب — زان مش كان أرحم من الطين ده؟ الساتر ده مبيخلصش يا جدعان!

لم يبتسم أحد. كان بيشوي يجلس في هدوء عند الركن، يعيد ترتيب حقيبة الإسعاف بعينين ترصدان ارتجاف أصابع إبراهيم وتشنج رقبة فتحي دون أن ينطق بحرف، بينما مد يده وثبت طرف الحبل لإبراهيم بحركة بطيئة أعادت للكف المرتجف اتزانه.

اقترب سيد خطوة واحدة نحو إبراهيم. وضع كفه العريضة الثقيلة على كتفه، وهبطت ثقل يده كصخرة أوقفت ارتعاش الجسد كله؛ لم يبتسم سيد، ولم يلقِ خطبة، بل نظر في عيني إبراهيم نظرة صارمة هادئة تمتص الذعر وتعيد للرجل

تماسكه، ثم التفت نحو فتحي، وأشار بسبابته نحو غمد السكين إشارة قاطعة لا تحتمل التأويل، فامتثل فتحي على مضض ودس النصل في مكانه. قال سيد بصوته الأجش الحازم الذي لا يعلو لكنه يملأ الخيمة:

— النفس اللي طالع في حكي يضيع في الطين. عيونكم على الحبل.. ووورايا.

شقت عتمة الصباح طلقة ضوئية حمراء، وانطلقت صفارة القائد تزلزل سكون المعسكر.

اندفع الأربعة نحو القارب المطاطي الأسود؛ كان سيد أول من قفز، وأمسك بالمجداف الرئيسي يوجه الزورق بقوة عضلية فذة وسط دوامات الماء الصناعي البارد، بينما هدرت في المقابل فوهات المدافع المائية التوربينية تصب سيولاً جارفة تفتت أطناناً من جدار الساتر، ليغمر الأفق رذاذ وحل يحجب الرؤية كأنه غبار معركة حقيقية.

ارتطم القارب بالضفة الطينية، فقفز سيد في الوحل حتى ركبتيه قبل أن يستقر الزورق،

شاداً الحبال الفولاذية بساعدين كأنهما رافعة حديدية ليثبت القاعدة لرجاله، وصاح آمراً:

— انزل يا إبراهيم! وتدك في العرق الصلب!

قفز إبراهيم بحمولته الثقيلة، لكن قدميه انغرزتا في طمي لزج وكاد يلتصق بالأرض من فرط ثقل الصناديق وهول المشهد أمامه، لولا أن فتحي اندفع كالسهم متجاوزاً إياه بشراسة عمياء، يصعد الساتر كمن يقتحم ناراً، لا يبالي بالانزلاق ولا بالحجارة التي تتدحرج من تحته، عيناه تقدحان شرراً نحو قمة الدشمة.

صرخ سيد بصوت اخترق هدير المضخات:

— متسبقش التشكيل.. ارجع للخط! فتحي!

أجبر صوت سيد الحاسم فتحي على كبح جماح اندفاعه ليعود ويثبت نفسه في نقطة تغطية. في تلك اللحظة ذاتها، انهار جرف طيني تحت قدم إبراهيم، فانزلقت ركبته ومال جسده إلى الخلف، مطلقا صرخة ذعر مكتومة وهو يرى نفسه يهوي نحو القاع.

في جزء من الثانية، كانت يد بيشوي تطوق حزام إبراهيم من الخلف وتغرسه في ثنية صخرية، بينما نزل سيد خطوتين في الوحل ومسك بياقة إبراهيم بيده اليسرى رافعاً إياه من الهوة بحركة واحدة جبارة، فيما كان إبراهيم يلهث بعينين زائغتين، لكن نظرة سيد الحارقة في وجهه قطعت شلله:

— رجلك ع الوتد.. مفيش نزول، دوس واطلع!

تحامل إبراهيم على نفسه، وتحولت رجفة الخوف تحت وطأة قبضة سيد إلى عزيمة يائسة؛ غرس وتده وضغط بكتفه ليصعد. تدافعت السواعد الأربعة، واختلط العرق المتفجر بالوحل السائل الذي ملأ العيون والأفواه، وسط أنفاس تتكسر في الصدور وعضلات تكاد تنفجر من حدة الانحدار.

مع آخر متر في الجدار، جذب سيد إبراهيم بحبل التسلق وألقى به فوق الحافة المستوية، ووثب خلفه فتحي وهو يسدد ماسورة رشاشه نحو محيط الخنادق بضراوة، واستقر بيشوي خلفهم يؤمن الممر، في نفس اللحظة التي دوّت

فيها صفارة النهاية لتعلن تحطيمهم للرقم القياسي.

ساد سكون مفاجئ وحابس، لا يقطعه سوى خرير الماء العائد إلى المجرى ولهاث صدورهم اللاهبة.

ارتمى إبراهيم على ظهره في التراب، يضع ذراعه فوق عينيه وأنفاسه تخرج متقطعة، ثم أزاح ذراعه ونظر إلى سيد بنصف ابتسامة شاحبة:

طلعت أهو يا ريس سيد.. بس وحياة — غلاوتك ده لو جبل المقطم مكنش هيبقى كده!

كان فتحي ما يزال جاثياً على ركبة واحدة، صدره يعلو ويهبط، وعيناه معلقتان بالأفق الشرقي كأنه يرى ما وراء الضباب، ولم تنفرج أساريره.

انحنى سيد، ورفع بندقيته بيده، ونظر إلى الثلاثة نظرة قائد رأى رجاله يولدون من جديد بين الطين والصخر، ثم ربت على صدر إبراهيم بقبضته الطينية، وقال وهو يحدق في رمال الشرق الممتدة:

هنا كان طين يا إبراهيم.. هناك في سينا —
.هيبقى نار. واللي طلع هنا، هيعدي هناك

عازف فوق الرمال

إحدى دشم خط بارليف، صيف 1972

كانت مروحة السقف المعدنية داخل الدشمة الحصينة تدور بصرير رتيب وبطيء، تقطع الهواء الساخن دون أن تكسر حرارته. على مسافة أمتار من فتحة المراقبة الضيقة المغطاة بزجاج مصفح وشباك مموهة، استلقى يونا على سرير ميداني مرتخٍ، واضعاً يديه خلف رأسه، بينما كانت إحدى رجليه تتدلى لتلامس الأرض الرملية. انبعث من جهاز تسجيل صغير صوت أسطوانة غربية تذيع موسيقى خفيفة، تمتزج برائحة كريم الوقاية من الشمس والتبغ الأمريكي، في كسل يشبه أجواء منتجع ساحلي هجره رواده، لا حصناً عسكرياً يطل على جبهة مشتعلة.

رفع يونا نظارته الداكنة قليلاً، والتفت نحو ديفيد الجالس عند زاوية الطاولة الخشبية العريضة:

ما زلت تدق بأصابعك فوق الخشب يا ديفيد؟ ضع دفترك جانباً.. الضفة الأخرى —

نائمة، لا شيء هناك سوى الطين وبضع نخلات تحترق من القيظ.

لم يرد ديفيد فوراً. كانت أصابعه النحيلة تتحرك فوق سطح الطاولة بحركات متناسقة ودقيقة، كأنه يضغط على مفاتيح بيانو غير مرئي؛ ينقر بإبهامه نقرة خافتة، ثم يعقبها بسبّابته وإصبعه الأوسط في إيقاع داخلي صامت لا يسمعه سواه. كانت أذناه تستقبلان نغمات الأسطوانة كضجيج نشاز يفسد سكون الصحراء الحقيقي.

أمام ركبتيه، استقر الدفتر الصغير ذو الغلاف الأسود، وجواره رسالة مغلقة وصلت صباحاً بختم عسكري من تل أبيب. لم يكن بحاجة لفتحها ليعرف ما فيها؛ كلمات والده إلياس التي كررها بنبرته الجافة الصارمة: "لطالما الجندي الذي يشرد عقله في الموسيقى يُمزق بطنه بالرصاص، لا مكان للحالمين في خط بارليف".

توقف ديفيد عن النقر، ورفع قلمه الرصاص وبخط سطوراً متقطعة في دفتره:

< يونا يسمع صوت المسجل ويظن العالم استقر، وأنا أسمع صمتاً أثقل من طبول

الحرب. هذا السكون الممتد على طول القناة ليس موتاً؛ إنه صمت القاعة الكبرى في الثواني التي تفصل بين رفع المايسترو لعصاه، وبين انفجار الأوركسترا بأول نغمة حادة. الهواء هنا مشحون برنين مكتوم يرفض الجميع سماعه."

>

أغلق ديفيد الدفتر ووضعه في جيب سترته العسكرية بالقرب من قلبه، ثم نهض ببطء مقترباً من فتحة المراقبة الخرسانية. تناول المنظار الميداني المقرب، وضبط عدساته بدقة لتتجاوز شريط المياه الزرقاء الساكنة نحو الضفة الغربية.

عبر العدسة المكبرة، كان الساتر الترابي المقابل يمتد بلون الطمي الداكن تحت لهيب الظهيرة. للوهلة الأولى، بدا كل شيء مهجوراً كعادته؛ قصب الماء يتحرك بكسل مع تيار القناة، وسياج شجري يبدو خاملاً. لكن ديفيد، الذي تعودت عيناه رصد الفروق الدقيقة كما ترصد أذناه ربع النغمة، لاحظ حركة مباغتة، لا تتعدى انحناءة ظل خافت خلف تل ترابي بعيد.

ركز نظره أكثر؛ لم تكن شجرة يهزها الهواء، بل رأس جندي يستطلع الموقع في صمت خاطف كأنه طيف، قبل أن يختفي تماماً في جوف الأرض.

ارتعشت عدسة المنظار في يد ديفيد للحظة، وسرت قشعريرة باردة في ذراعيه رغم لهيب شمس الظهيرة الحارقة.

تثاءب يونا من خلفه، مقلباً شريط الكاسيت بكسل، وقال بصوت ناعس:

— أرأيت؟ قلت لك لا شيء يستحق المراقبة.. لو كان لديهم ما يفعلونه لفعلوه منذ خمس سنوات. دعك من المنظار وتعال لنكمل جولة الورق.

أنزل ديفيد المنظار بهدوء، وأسند جبهته إلى الجدار الخرساني البارد للدشمة. كانت أذناه لا تزالان تلتقطان الصمت القادم من الضفة الأخرى، صمتاً حاداً كحد السكين، يهمس في أعماقه بأن هذا الجدار الرملي الضخم الذي يتكئون عليه ليس سوى قشرة واهية، وأن

النغمة الأولى حين تعزف، لن تترك وراءها
حجراً فوق حجر

نحو القناة

طريق الإسماعيلية الزراعي – مشارف الجبهة، ربيع 1972

كان الصندوق الخلفي لشاحنة الـ «زيل» يغلي بعتمة ثقيلة، تتقاذفها مطبات الطريق الزراعي في صمت مطبق فرضته التعليمات العسكرية؛ لا صوت يعلو فوق شخير السولار في المحرك، ولا ضوء سوى خيط أزرق باهت يتسرب من شق الستارة الخلفية، يلمع فوق فوهات البنادق المحشورة بين الركب.

جلس سيد في صدر الصندوق، متكئاً بظهره على خشب الكابينة. لم يكن يتحرك مع اهتزاز الشاحنة؛ كان يمتص الصدمات بثبات جسده، ويده تقبض على عروة السلاح بتمكن آلي. عيناه المعتمتان كانتا تتفحصان الوجوه الثلاثة أمامه في الضوء الشحيح، يقرأ ما لا تقوله الألسنة في هذه الليلة الفاصلة: الانتقال من ميادين التدريب الوهمية إلى الأرض التي تشهد الموت الحقيقي كل يوم. مع كل كيلومتر تقطعه القافلة، كان يشعر ببرودة الهواء تتغير؛ رطوبة

الدلتا الدافئة انسحبت، وحل مكانها نسيم جاف ولاذع يحمل غباراً مالحاً ينبئ باقتراب مياه المانع.

على المقعد الخشبي المتقلقل، كان إبراهيم يصارع فكرة السقوط. كفاه الخشنتان تشبثتا بحافة الصندوق بقوة جعلت مفاصله تبيض، وظهره منحنٍ للأمام كأنه يتوقع قذيفة تهبط من سقف الشادر في أي ثانية. كلما تباطأت الشاحنة عند حاجز تفتيش، كان حلقه ييبس، فيبلع ريقه بصعوبة تكاد تُسمع.

التفت بنصف ابتسامة باهتة لا تصل إلى عينيه، وهمس بصوت قاهري مخنوق:

— هو السواق ده بيوصل نقلة طوب أحمر؟ براحة يا عم الحج.. على ميزان الميّة الله يسترك، العفشة دي مفهاش مسامير زيادة عشان تتخلع قبل ما نوصل!

لم يرد أحد. عند الزاوية المقابلة للفتحة، كان فتحي يجلس كزنبرك مضغوط حتى آخره. لم يكن يسمع نكات إبراهيم ولا رنين السلاح المرتطم بالحديد. كانت يداه مشغولتين بحركة

عصبية صامتة: إبهامه يضغط على نصل السكين داخل جرابه الجلدي، ثم يعود ليتحسس حجر الزيت في جيبه المنتفخ. عيناه مثبتتان على الظلام في الخارج كأنه يشم رائحة الدخان القديم في الهواء؛ مسام جسده كلها مشدودة، وفكاه مطبقان بقسوة تبرز عظام وجهه. بالنسبة له، كل قفزة للشاحنة لم تكن تقربه من موقع عسكري، بل كانت تدنيه من جرحه المفتوح، من شوارع بلاده التي سوتها المدافع بالتراب وتركها أهله مرغمين. الغضب في صدره لم يكن فكرة، كان ناراً حسية تكاد تحرق سترته الصوفية.

حين فتح فمه ليزجر إبراهيم، لم تخرج منه سوى قسوة جافة:

— وفر نكتك دي يا إبراهيم.. الهوا اللي داخل من برة ده مش هوا فرجة.

ارتد إبراهيم إلى الوراء ملتصقاً بالخشب، شاحب الملامح، ويده ترتعش فوق ركبته في محاولة يائسة للسيطرة على خوفه الغريزي.

تحرك بيشوي من عتمة الركن بانسيابية هادئة، دون أن يصدر لحقيبته الإسعافية أي جلبة. وضع كفه الباردة والواثقة فوق يد إبراهيم المرتجفة، وضغط عليها بهدوء الممرض الذي يعرف كيف يُسكن روع المحتضرين بلمسة. أخرج زمزميته، ودفعها برفق نحو كف إبراهيم، مائلاً برأسه في صمت؛ نظرة واحدة من عينيه الصبورتين كانت كافية لتقول للنجار: أنا هنا، وتنفسك سيعود لطبيعته.

التقط إبراهيم الزمزمية، وبلل شفتيه بجرعة ماء ارتدت معها روحه قليلاً، بينما راقب سيد المشهد كله دون أن يتدخل بكلمة؛ كان يعرف متى يحتاج رجاله إلى الصمت، ومتى تكفيهم لمسة رفيق.

فجأة، غاصت عجلات الشاحنة في مدق رملي، وانحرفت بشدة قبل أن يتلاشى هدير المحرك تماماً تحت ظلال أشجار كثيفة حُجبت بها القافلة عن الاستطلاع الجوي.

ساد سكون مفاجئ وثقيل، سكون بارد وموحش يسبق الانفجار.

ارتفعت أطراف الشادر، وأشار قائد الفصيل بحركة قاطعة للهبوط. قفز سيد أولاً، غارساً عقب حذائه في الأرض الرطبة، ثم التفت ليتلقف عتاد إبراهيم الثقيل بيد واحدة، بينما كان فتحي يقفز كالذئب إلى بطن الخندق، وبيشوي يؤمن مؤخرة النزول بحقيبته المحكمة.

زحف الأربعة خلف ساتر ترابي متقدم، كُسي بشباك تمويه تخفي الخنادق الواطئة. في سكون الفجر الكامد، كان صوت تلاطم الماء المالح يتردد بإيقاع رخيم على بعد أمتار معدودة؛ كانت القناة تجري هناك في الظلمة، شرياناً بارداً يفصل بين عالمين.

رفع سيد المنظار الميداني ببطء وثبته نحو الشرق.

عبر العدسات، وسط غبش الصباح الأول، ارتفع الساتر المقابل كجدار أسطوري من الرمل المدموك والصخور المسننة، شاهقاً بزاوية انحدار تسد مجرى البصر بالكامل، تبرز منه فتحات الدشم الخرسانية السوداء وأسلاك شائكة تشبه مخالب حديدية.

دنا إبراهيم من كتف سيد، وألقى نظرة سريعة من فوق الحافة، فشهق بأنفاس متقطعة وهو يرى الجبل الحقيقي الذي لا يشبه محاكاة إنشاص الطينية:

— يا ساتر يا رب.. ده مش ساتر، دي عمارة واقعة بالعرض! ده ملوش ميزان ده.. طالع في السما كأنه حيطة القيامة!

زحف فتحي حتى حاذى حافة الخندق؛ اشتعلت حدقتاه ببريق مرعب وهو يرى أبراج المراقبة المعادية تلوح كأشباح فوق التلال، وخرج صوته كفحيح البارود:

— خليه يعلى.. والله لنهده على نفوخهم طوبة طوبة.

أنزل سيد المنظار بحركة بطيئة، وأسند جبهته إلى رمال الخندق لثانية واحدة كمن يقبل أرضه، ثم رفع رأسه ونظر في عيونهم واحداً تلو الآخر؛ كانت نظرته صلبة كصخور بلاده، خالية من التردد أو الخوف. أشار بسبابته نحو الجدار الترابي العملاق وقال بنبرة هادئة قطعت صقيع الفجر:

مش هيفضل عالي كتير يا إبراهيم.. إحنا — اللي هننزله بإيدينا، ومن هنا هتبدأ الحكاية.

رائحة الطين والبارود

الضفة الغربية للقناة – قطاع الإسماعيلية، صيف 1972

كانت الشمس في وضح النهار تصب ناراً سائلة فوق خنادق الضفة الغربية، فترتفع من مجرى القناة ومن الطمي المشقوق أبخرة رطبة لزجة تخنق الأنفاس، تختلط بروائح الكبريت وعوادم المضخات ونفايات الحديد الصدئة المتراكمة منذ معارك الاستنزاف. لم تكن هناك ظلال تحمي الرؤوس سوى بضع مظلات خشنة من الخيش المشدود فوق دعائم خشبية غير مستوية، تسقط تحتها ذرات التراب الجاف مع كل هبة ريح شرقية قادمة من اتجاه الساتر المعادي.

في قاع الخندق الرئيسي الممتد بمحاذاة الشاطئ، كان صوت ضرب الفؤوس في الطين المعجون بالحصى يتردد برتابة قاسية.

كان سيد عاري الصدر حتى وسطه، يلمع جلده الأسمر بطبقة سميكة من العرق المخلوط بغبار الحفر. يرفع الفأس بكلتا يديه فوق رأسه بحركة

دائرية واسعة وموزونة، ثم يهوي بها ليغرس نصلها الفولاذي عميقاً في قلب الأرض المتحجرة، فترتد الضربة برنين صلب يهز كتفيه دون أن يزحزح ثبات ساقيه في القاع. كان يعمل كآلة لا تعرف التعب؛ ضربة تلو ضربة، يعمق مجرى تصريف المياه ويوسع شق الممر التكتيكي. حين يلتقط أنفاسه لثوانٍ، يمسح جبهته بظهر ساعده المترب، ويرمي بنظرته نحو الشرق، يتفحص أبراج المراقبة المعدنية الشاخصة فوق الساتر كأن عينيه تحفران في الخرسانة هناك مجرى للعبور.

على مسافة مترين منه، كان إبراهيم يجلس القرفصاء داخل حفرة جانبية، يثبت دعامات خشبية لسقف مأوى الذخيرة. كانت أصابعه الملطخة بالقطران تدق المسامير الطويلة بمطرقته في ضربات متلاحقة، لكن عينيه كانتا تقفزان كل بضع ثوانٍ نحو الفتحة العلوية للخندق مع كل صوت صفير غريب في الجو، أو طنين محرك طائرة استطلاع يمر بعيداً خلف خط الأفق. كان القلق يحرق أعصابه؛ كل حبة عرق تسيل داخل ياقة سترته يشعر بها كأنها نملة باردة تدب على عنقه.

توقف إبراهيم عن الدق، ومسح وجهه بطرف كمه المبتل وهو يضع زاوية الخشب القائمة، ثم ألقى نظرة لاهثة على سيد وتمتم بلهجته السريعة ليطرد الصمت الذي يرعبه:

— هو احنا هنحفر لحد ما نطلع من الناحية التانية عند باب الخلق يا ريس سيد؟ التراب ده عامل زي العجين الناشف، والمسمار بيخش فيه بالعافية.. حتى الخشب هنا عاصي، مش راضي يظبط على ميزان الميّة خالص من كتر ما الأرض مايلة!

توقف سيد وسند كفيه فوق مقبض الفأس الخشبي، ونظر إلى الدعامات التي رصها إبراهيم بعين خبيرة، وقال بنبرة هادئة وعميقة:

— خشبك مظبوط يا إبراهيم، والضربة اللي بتدقها هنا بتشيل سقف فوق راسك لما الدانات تبدأ ترن. دق وثبّت، الساتر ده مش هيرحمنا لو اتكاسلنا في شبر.

في القطاع المتقدم من الخندق، كان فتحي يحمل جوال رمل ثقيل فوق كتفه، يتقدم به نحو الحافة الأمامية ليعزز نقطة المراقبة. كان جسده

النحيل مشدوداً كوتر حديدي؛ يرفض أن يستريح ولو لدقيقة واحدة. لم تكن الشمس الحارقة تعنيه في شيء، بل كانت تزيده غلياناً؛ كلما اقترب من شفة الساتر الواطئ ونظر إلى شريط المياه الضيق الذي يفصله عن جنود الاحتلال، اشتعل في حلقه ذلك الطعم المر القديم. كان يلقي الجوال بقسوة ليصطدم بالحجارة، ثم ينحني ليلتقط جوالاً آخر، وأسنانه تطبق على شفته السفلى حتى كادت تدميها، عيناه لا تغادران خط التلال المقابل، يده اليسرى تتحسس غمد سكينه المعلق عند خاصرته بحركة لا إرادية يكررها مع كل نقلة، كأنه يعد العدة لاشتباك سيبدأ بعد دقيقة.

صاح به بيشوي من موقع الإسعاف المستور خلف جدار ترابي واطئ:

ارمي الجوال من إيدك يا فتحي وتعال.. — الشمس هتضرب نفوخك، وجلد رقبتك اتشوى من الصبح!

لم يلتفت فتحي، بل واصل سحب شوال جديد، وقال بصوت جاف يقطر غيظاً:

مش تعبان.. اللي قاعدين هناك ورا الحيطة — دي مبيستريحوش، وأنا مش هقعد في الضل والبلد محروقة. سيبني في حالي يا بيشوي.

تقدم بيشوي نحوه بخطوات هادئة، حاملاً زجاجة ماء فخارية صغيرة ملفوفة بقماش مبلل لحفظ برودتها، ومعه قطعة شاش معقمة. كان بيشوي يتحرك بذاك الصبر الموروث من بلدته الهادئة؛ لا ينفعل أمام حدة فتحي، ولا يضيق ذرعاً بخوف إبراهيم. وقف أمام فتحي مباشرة، وسد طريقه بهدوء قاطع، ومد إليه الماء:

خد اشرب.. العند مع الشمس غباء، وإحنا — مش عايزينك تقع من ضربة شمس قبل ما تلمس الساتر. اشرب عشان تعرف تقف ع الحراسة بالليل.

نظر فتحي إلى عيني بيشوي الواثقتين، فتلاشى جزء من عناده؛ أخذ الزجاجة وصب الماء في جوفه دفعة واحدة كأنه يطفئ حريقاً داخلياً، ثم مسح ذقنه الخشنة وارتد خطوة إلى الوراء يستند إلى جدار الطمي البارد، بينما انحنى بيشوي وتفقد كف فتحي التي تشققت من خشونة

الحبال، ممرراً عليها مروداً من مرهم مهدئ بحركة حانية لا تحتمل الرفض.

فجأة، شق سكون الظهيرة صوت صفير حاد ومتباعد؛ كانت طائرة مقاتلة معادية تقطع سماء سيناء في طلعة استطلاع عالي، فتردد صدى اختراقها لحاجز الصوت كدوي رعد مفاجئ اهتزت له جدران الخندق، وتساقطت ذرات الرمل فوق رؤوسهم.

تجمد إبراهيم في مكانه، وأسقط المطرقة من يده، والتصق بالزاوية الخشبية متقلصاً، أنفاسه انحبست في صدره وحدقتاه تبحثان عن مهرب في سقف التراب.

لم يتحرك سيد قيد أنملة؛ ظل واقفاً في مكانه، متكئاً على فأسه، يرفع رأسه بهدوء نحو النقطة الفضية اللامعة التي تبتعد في كبد السماء الزرقاء. لم تكن في ملامحه ذرة اضطراب، بل كان يتابع مسارها كصياد يدرس طريدته. التفت نحو إبراهيم، وانحنى ليلتقط المطرقة من الأرض، ومسح عنها التراب ثم وضعها في يد النجار برفق وضغط على أصابعه:

دي في السما يا إبراهيم، ملهاش دعوة — بالأرض. دق مسمارك.. الأرض بتاعتنا إحنا.

تنفس إبراهيم الصعداء، وقبض على المطرقة وعاد يضرب بخشونة ليداري رعشة كفه، بينما همس وهو ينظر إلى سيد بعينين عاد إليهما البريق:

حاضر يا ريس سيد.. هندق لحد ما السقف — يشيل جبل.

ألقى فتحي نظرته الأخيرة نحو الشرق، حيث كانت القناة تلمع كشفرة سيف تحت الشمس، ثم عاد إلى جواله الرملي يرفعه بقوة جديدة، بينما جلس بيشوي يطوي لفائف الشاش بهدوء راهب أتم صلاته.

وقف سيد يراقب سواعد رجاله وهي تلتئم من جديد في باطن الطين، واستنشق هواء الجبهة الثقيل المشبع برائحة البارود؛ كان يعلم أن هذا التراب الذي يعجنونه بعرقهم اليوم، هو الجسر الوحيد الذي سيعبرون عليه غداً.

دورية ليلية صامتة

مجرى القناة – قطاع البحيرات، خريف 1972

جاءت الأوامر من قائد السرية بنبرة خفيضة ومباشرة داخل ملجأ العمليات: استطلاع مسار التيار وقياس انحدار الطمي عند نقطة ميتة أسفل الساتر، بقارب مطاطي واحد ومهمة لا تتجاوز عشرين دقيقة. اختار القائد المساعد «عطية» من المهندسين لخبرته في المجاري المائية، ومعه سيد للياقته وثباته في المهام المتقدمة، ووقع الاختيار على إبراهيم ليكون الجندي الثالث المسؤول عن تثبيت مجسات القياس وتأمين السحب بالحبال.

حين سُحب القارب الأسود من تحت دغل القصب، كان الهواء الخريفي يلسع الآذان بصقيع جاف. هبط إبراهيم أولاً بحذر مفرط، تتخبط ركبتاه في قاع الزورق اللزج، وعيناه معلقتان بعتمة المجرى المائي التي تبدو كبئر بلا قرار. جلس في المنتصف كما أمره المساعد عطية، محشوراً بين لفائف الحبال وصندوق

الأدوات الحديدي، يمسك بحافة المطاط بأصابع ميتة الإحساس من شدة الضغط والبرد. كان ابتلاع ريقه يصدر صوتاً في حلقه، وظهره متشنجاً إلى أقصى حد، كأنه يخشى أن تؤدي أي حركة إلى شق الجلد المطاطي وغرقهم في القاع.

ركب سيد خلفه بخفة، سلاحه معلق على ظهره بحزام مشدود بإحكام، ثم دفع القارب بضربة واحدة ناعمة واستقر في مكانه.

تحرك الزورق؛ لا صوت لمحرك، فقط غرسات المجاديف المغطاة بالخيش وهي تشق سطح الماء البارد. كانت المياه تسري بتيار خفي يجذب القارب باتجاه الجنوب، مما جعل الزورق يميل ميلاً طفيفاً مع كل سحبة.

التفت إبراهيم نصف التفاتة نحو سيد، وخرج صوته مبحوحاً يغالبه اضطراب حقيقي:

— هو احنا بنعوم في بير مالهوش آخر ولا إيه يا سيد؟ البتاع ده بيعوم ع الهوا.. مش على ميزان الميّة خالص يا جدعان، أي هزة تودينا للسمك!

وضع سيد يده فوق ساعد إبراهيم، وثبتها بضغط هادئ ومحكم، دون أن ينبس ببنت شفة. في تلك العتمة، كانت كف سيد الثابتة تمنح إبراهيم ما يحتاجه بالضبط ليبقى في مكانه دون حركة رعناء. همس المساعد عطية من المقدمة آمراً:

النفس بحساب يا عسكري، الكشاف بيلف — كل تلات دقايق.

انحبست الأنفاس تماماً. سكن إبراهيم، وجلس يراقب انزلاق حزمة ضوء بيضاء بعيدة تمسح خط المياه شمالاً ثم تتراجع دون أن تلامس زورقهم الصامت.

اقترب القارب من شريط الشاطئ المقابل؛ تضخمت كتلة الساتر الترابي الأسود حتى بدت كأنها تسقط فوق رؤوسهم. أشار عطية بسبابته، فثبت سيد مجدافه، وتناول قضيب القياس المعدني وأنزله برفق في القاع الطيني، بينما كان إبراهيم يمسك ببكرة الحبل المشدودة لتحديد المسافة، ويداه ترتجفان لكنهما تؤديان ما تدرب عليه في المعسكر دون إخلال.

غاص طرف القضيب، ثم التقت كف إبراهيم بالطين المبتل عند حافة اللسان الرملي وهو يحكم ربط وتد التثبيت. لم يكن الطين سوى وحل بارد يشبه طين قريته أو ضفاف أي ترعة يعرفها، لا أسلاك مكهربة ولا نار مشتعلة؛ مجرد أرض تنتظر من يطؤها. استقرت أنفاسه قليلاً، وارتخى شد أسنانه المطبقة وهو يدرك أنهم بالفعل عند قدم الساتر، والعدو في غفلته فوق الرؤوس لا يدري بما يدور تحته.

سحب عطية القضيب بحركة سريعة ومكتومة، ودفع بمجدافه حافة القاع.

استدار الزورق في دورة ناعمة مبتعداً عن الشاطئ المحتل، وانزلق عائداً في حضن الظلام نحو الغرب، بينما كان إبراهيم يمسك بكرة القياس بكف ثابتة هذه المرة، وعيناه لا تزالان معلقتين بذاك الطين الذي لم يعد غريباً.

صدى برلين

مبنى السفارة المصرية، برلين – مساء اليوم نفسه

انحسرت حركة الموظفين تدريجياً في أروقة السفارة مع هبوط الظلام، حتى أُغلقت معظم المكاتب المجاورة، وظل الطابق الثاني غارقاً في هدوء مريب. في الخارج، تحول رذاذ المطر الخفيف إلى قطرات أثقل تنحدر برتابة فوق ألواح الزجاج المزدوج، لتعكس أضواء الشارع البعيدة كظلال مكسورة وباردة.

داخل الغرفة، كان ضوء المصباح المكتبي الأصفر يسقط وحيداً على الطاولة الخشبية العريضة، تاركاً أركان المكان في عتمة نصفية.

فوق سطح الطاولة، لم تكن الأشياء قد تحركت قيد أنملة عن الموضع الذي استقرت فيه حين غادر إلياس روزنبرغ الغرفة: الحقيبة الجلدية القديمة بمعدن قفلها النحاسي الصدئ، بطاقة التحقيق الشخصية الورقية ذات الصورة الباهتة لشاب أسمر حاد النظرات، السلسلة المعدنية

العسكرية المحفورة باسم جندي مجند — سيد زكريا، وذلك الجواب القديم ذو الحواف المصفرة المتآكلة الذي يبست على جانبه بقعة دم جافة تحولت عبر السنين إلى لون الصدأ القاتم.

كان العقيد حسام، الملحق العسكري، يقف بجوار النافذة ويداه في جيبي بنطاله، يحدق في قطرات الماء السائلة على الزجاج، بينما كان المستشار طارق عبد الحميد يستند بكفيه إلى حافة الطاولة، ينظر إلى المقتنيات بوجوم أرهق ملامحه.

كسر حسام الصمت دون أن يستدير، وصوته يخرج خشناً وبطيئاً:

الراجل ملامحه مكانتش ملامح واحد بيسلّم — متعلقات عادية يا طارق.. الطريقة اللي حط بيها الشنطة، ورفضه إنه يقعد دقيقة زيادة، وكلمة «أنا وعدت» اللي قالها عند الباب.. دي حركة واحد بيرمي جمرة من إيده بعد ما حرقت كفه سنين.

تنحنح طارق، ومسح طرف ذقنه بأصابعه:

كان شاحب جداً.. تحس إنه كان خايف — يسأل هو نفسه إيه اللي جوه، أو يمكن عارف وخايف يواجهه. الشنطة دي مكنتش مجرد ذكرى عنده في البيت، دي كانت عبء، كأنها أمانة ميتين متأخرة خمسين سنة.

التفت حسام وخطا نحو الطاولة بخطوات متزنة. مد يده المغطاة بالقفاز الأبيض، ورفع السلسلة المعدنية برفق، تاركاً قطعة المعدن تتدلى بين أصابعه لثوانٍ تحت الضوء الأصفر. كان وزنها المعدني خفيفاً، لكن الحروف المحفورة فيها كانت تفرض في هواء الغرفة المعقم حضوراً غريباً، كأنها استُخرجت لتوها من جوف ساتر ترابي محترق. وضع السلسلة مكانها بهدوء، ثم رفع سماعة الهاتف الأرضي المشفر المتصل بالقاهرة، وأدار القرص بأصابع ثابتة.

أمسك طارق طرف الخطاب القديم الملطخ بالدماء؛ كان الورق خشناً وهشاً للغاية، تفوح منه تلك الرطوبة العتيقة التي امتصتها الحقيبة الجلدية في خزائن أوروبا الباردة، رطوبة لا

تشبه هواء العاصمة الألمانية في شيء، بل تمتد جذورها إلى قيظ سيناء وغبار معاركها البعيدة.

جاء صوت مأمور السجلات العسكرية عبر سماعة الهاتف خافتاً ومتقطعاً بذبذبات التشويش:

— ألو.. معاك يا فندم.

تحدث حسام بنبرة مقتضبة وحازمة:

مساء الخير يا فندم.. افتحوا معايا دفاتر أكتوبر 73، قطاع كتائب الصاعقة.. ابحثوا عن جندي مجند اسمه «سيد زكريا».. راجعوا كشوف العمليات المتقدمة والمفقودين بدقة، محتاج الرد الرسمي على البرقية في أقرب وقت.

أعاد حسام السماعة إلى موضعها ببطء، واستقر الصمت في الغرفة من جديد، ثقيلاً ومحتقناً بانتظار لا يعرف مداه.

وقع بصر طارق عندئذ على الظرف الأبيض العادي، الذي ظل مستقراً بجوار قاعدة المصباح. ظرف لم تمسسه رطوبة ولا دماء،

أبيض وحديث، لا يحمل على واجهته سوى كلمتين بخط جاف وقاطع: إلى مصر.

مد طارق يده، وتناول الظرف بحذر. كان في سمكه ما يوحي بأنه لا يحتوي على مجرد بطاقة وداع قصيرة، بل أوراق متطابقة مطوية بعناية في الداخل. فض الغلاف الأبيض بتمهل، وانزلقت إلى راحة يده صفحات مكتوبة بكثافة، حبرها أسود داكن، وسطورها تسير بميل خفيف يشي بارتعاش يد عجوز يصارع وهن الشيخوخة ونفاد الوقت.

قرب طارق الصفحة الأولى من دائرة الضوء الأصفر، وسكنت حركته تماماً.

وقف حسام في مواجهته، يتابع تغير ملامح وجه الدبلوماسي؛ رأى عينيه تتسعان ببطء، وأنفاسه تنحبس في صدره، بينما جمدت أصابعه على حواف الورقة.

انفرجت شفتا طارق، وقرأ بصوت خافت متهدج تملؤه الرهبة:

لقد عاش صاحب هذه المتعلقات في " > كوابيسي خمسين عاماً كاملة.. لم أره قط كعدو،

بل كجبل من الصوان في رمال سيناء، حتى أطلقت عليه هناك: أسد سيناء..."

>

سكت طارق فجأة، وانقطعت أنفاسه عند تلك العبارة، وظلت عيناه مسمرتين على ما بعدها من سطور تتدفق في عتمة الورق، بينما تلاقت نظرات حسام المشتعلة بالترقب مع صمت الصفحات المفتوحة تحت المصباح.

رصاصة طائشة

الضفة الغربية للقناة، شتاء 1972

السكون على خط النار كذبة، وأسوأ ما فيه أنه يتحول إلى عادة.

سيد كان ينظف ترباس بندقيته بفرشاة أسنان قديمة. حركة رتيبة، منتظمة، كأنه في ورشة لا على بعد أمتار من مدافع العدو. إلى جواره، إبراهيم يسند ظهره لجدار الخندق، ممسكاً بقطعة خشب يفرغ فيها طاقته بسكين جيب، ينحتها بلا هدف واضح، فقط ليتأكد أن أصابعه لا تزال تعمل في هذا الصقيع.

خشب زان ده يا سيد؟ —

سأل إبراهيم بصوت واطٍ، دون أن يرفع عينيه.

سيد لم ينظر إليه، واكتفى بهزة رأس مقتضبة:

حتة من صندوق ذخيرة فاضي. كمل نحت — من سكات.

على مسافة خطوتين، عند فتحة المراقبة الضيقة، كان فتحي كعادته: عضلات فكه

مشدودة، عيناه مثبتتان في الساتر الترابي المقابل. السكوت لا يناسب فتحي؛ السكوت يجعله يفكر في بيته المهدوم في السويس، وذلك بالتحديد ما يجعله خطراً على نفسه وعلى النقطة. أما بيشوي، فكان مستغرقاً في لف أربطة الشاش القديمة حول بكراتها، يفرز حقيبة الإسعاف كأنه صيدلي في حي هادئ، هدوؤه يستفز توتر فتحي الصامت.

وفجأة، انتهت الرتابة.

لم تكن هناك مدفعية ولا إنذار. مجرد صوت جاف وقصير ككسر غصن يابس، تلاه ارتطام معدني سريع بسقف الخندق الخشبي.

الطلقة لم تكن موجهة لأحد بعينه؛ مجرد رصاصة رشاش ثقيل أطلقها برج مراقبة إسرائيلي على امتداد القناة لتمشيط القصب، لكنها ضلت طريقها، غيرت مسارها بعد الاصطدام بالعارضة، وكشطت كتف بيشوي الأيمن قبل أن تغوص في شوال الرمل خلفه وتنفث سحابة غبار بيضاء.

سقط بيشوي على جنبه بحركة لا إرادية. لم يصرخ، لكنه كتم شتيمة قصيرة بين أسنانه وهو يمسك ذراعه.

في الثانية نفسها، تحرك فتحي بغريزة عمياء. استدار، رفع سلاحه الآلي باتجاه الفتحة، ووضع إصبعه على الزناد. كان الدم قد صعد إلى رأسه في طرفة عين، وعيناه لا تريان سوى الساتر.

قبل أن يضغط الزناد بنصف ملّي، ضرب كف سيد الحديدي ماسورة السلاح إلى أسفل بعنف، لترتطم بالأرض، بينما جذب فتحي من ياقة سترته وطرحه أرضاً بقوة أفرغت الهواء من صدره.

— اثبت مكانك!

جاء صوت سيد فحيحاً حاداً قرب أذن فتحي، عيناه تشتعلان بغضب بارد ومسيطر:

— طلقة طايشة في الهوا.. هتفتح نار وترد عليهم عشان طلقة عميا؟ عايز الدشم اللي هناك دي كلها تصحى وتصب قذايفها فوق نفوخنا؟!

ظل فتحي يلهث، صدره يعلو ويهبط، وعيناه تتنقلان بين وجه سيد الصارم وبين بيشوي الممدد في التراب. قبضته على السلاح ارتخت ببطء، قبل أن يبصق على الأرض في غيظ مكتوم ويسند جبهته إلى ركبتيه.

زحف إبراهيم على ركبتيه نحو بيشوي، وجهه أصفر بالكامل، وقد سقطت قطعة الخشب من يده وتاهت في التراب:

— بيشوي! دم ده يا بيشوي؟! اتصابت فين؟!

مد بيشوي يده اليسرى وأمسك بساعد إبراهيم ليوقفه عن التخبط، وقال بصوت متهدج لكنه متماسك:

— اهدى يا ابني.. خدش سطحي، الطلقة لمست القماش بس. هات الميكروكروم والمقص من الشنطة.

انحنى سيد بجسده فوق بيشوي، فحص مكان الإصابة بسرعة عملية ودون ارتباك. شق كم السترة؛ كان الجرح كشطاً طولياً أحمر ينزف ببطء، حرق بارود سطحي لم يكسر عظماً ولم يمزق وتراً.

أفرغ سيد زجاجة المطهر فوق الجرح دون مقدمات. شد بيشوي على قبضة إبراهيم حتى ابيضت مفاصلهما معاً، وعض على شفته السفلى مانعاً أي صوت من الخروج، بينما جلس إبراهيم يغمض عينيه كأن الألم يمزق لحمه هو.

لف سيد الشاش بإحكام، وعقده برباط ضاغط سريع. مسح يديه في بنطاله، ثم ضرب كتف بيشوي السليم خبطة خفيفة ذات مغزى:

كفارة يا حكيم.. دي قرصة ودن عشان تفضل صاحي — .

ساد الصمت من جديد، لكنه كان صمتاً مختلفاً تماماً عن رتابة الصباح.

مد إبراهيم أصبعه ببطء نحو كيس الرمل خلفهم، وأخرج المقذوف النحاسي المشوه الذي كان قد استقر في الخيش. كان لا يزال دافئاً. قلّبه بين أصابعه المرتعشة، ونظر إلى فتحة الخندق، ثم إلى سيد وفتحي.

لم ينطق أحد بحرف، لكن الرصاصة العشوائية فعلت ما لم تفعله طوابير التدريب: محت فكرة

الأمان الزائف من رؤوسهم دفعة واحدة،
وتركتهم يعرفون، دون خطب ولا شعارات، أن
الموت هنا يمر على بعد سنتيمتر واحد، وأن
.الخطأ في الحسابات ثمنه رقاب الجميع

شتاء الخنادق

الضفة الغربية للقناة، يناير 1973

الصقيع في خنادق القناة ليس مجرد برد عابر، بل طبقة لزجة من الرطوبة والملح تتسلل تحت الصوف الميري، وتجمد مفاصل الأصابع حتى تفقد الإحساس بالزناد.

في جوف الدشمة المستورة تحت الأرض، لم يكن هناك ضوء سوى شعلة صغيرة من موقد جاز بدائي صُنع من علبة صفيح قديمة محشوة بفتيل قماش، يطلق خيط دخان أسود رفيع يلتف حول جذوع النخل في السقف.

جلس الأربعة متلاصقين في دائرة ضيقة حول لهب الشعلة، تلامست ركبهم وأكتافهم التماساً لأي دفء متاح. كان كتف بيشوي الأيمن مشدوداً برباط ضاغط تحت السترة، لكنه كان يمسك غطاء علبة الصفيح ويقلب عليه رغيف خبز يابس ليطريه فوق النار، بينما تتصاعد

ميري "كنكة"رائحة شاي مغلي ثقيل يغلي في مفلطحة.

مد إبراهيم كفيه المرتجفتين نحو الشعلة، ونفخ فيهما نفخة حارة خرجت على شكل بخار أبيض كثيف:

عارف يا بيشوي.. أنا لو طلعت من هنا — سليم، أول حاجة هعملها هولع في دولاب خشب كامل، وأقعد جواه لابس صوف ومش هخرج منه لحد الصيف.

ابتسم بيشوي بهدوء، وقسم الرغيف الساخن إلى أربعة أجزاء متساوية ووزعها عليهم بيده السليمة:

بكره تدفى في ورشتك يا إبراهيم، وتنسى — ريحة الجاز دي.. بس ساعتها هتوحشك قعدتنا هنا.

التقط فتحي نصيبه من الخبز، وغمسه في الشاي المُر. كانت ملامحه الحادة قد فقدت نزقها المتهور بعد درس الطلقة الطائشة، وحل مكانها هدوء صلب، ونظرة غائرة تعرف

بالضبط متى تضرب ومتى تنتظر. قال بصوت منخفض وهو ينظر إلى لهب الشعلة المتراقص:

— مش ناسي وقفتك يا سيد لما مسكت دراعي.. لو كنت ضربت، كانت المدفعية سوتنا بالرمل.

رفع سيد عينيه عن رشفة الشاي، ونظر إلى فتحي نظرة ثابتة لا لوم فيها ولا تعالي:

— إحنا داخلين سوا، وهنعدي سوا يا فتحي.. الطلقة اللي ملهاش حساب متطلعش، واللي يخرج عن التشكيل يضيع الكل. إحنا هنا حبل واحد، لو عقدة فكت، الباقي يفرط.

ساد صمت دافئ، كسرته طرقعة جمر صغير في الصفيحة. أخرج إبراهيم من جيب سترته الداخلي صورة صغيرة لنعمة ملفوفة في كيس بلاستيك شفاف يحميها من الرطوبة، حدق فيها لثوانٍ ثم أعادها بحرص إلى مكانها فوق قلبه، وتمتم:

— فاضل لي درفتين في الدولاب وأخلص أوضة النوم.. كان نفسي أعلق الرفوف بيدي.

ربت بيشوي على ركبته برفق:

— هتعلقها، وأنا اللي هجبلك مفرش السرير من المنيا هدية الجواز.

ضحك إبراهيم ضحكة مكتومة قطعت قسوة الصقيع:

— ده لو سيد وسع لنا في الصعيد، وما أخدناش كلنا على الأقصر نزرع قصب بعد ما نخلص الخدمة.

التفتت الأنظار نحو سيد. كان صامتاً كعادته، لكن ابتسامة هادئة أضاءت سمرته الجنوبية. لمس بكفه سلسلة الجندي المعلقة تحت قميصه الصوف، وتذكر أحمد وأرض النخيل والوعد المعلق هناك في الجنوب.

مد سيد يده ووضع كفه في منتصف الدائرة فوق فوهة الموقد الدافئة، فنظر إليه فتحي لثانية واحدة، ثم وضع كفه الخشنة فوق كف سيد دون تردد. تبعهما بيشوي بيده السليمة، ثم أطبق إبراهيم أصابعه فوق أيديهم الثلاثة.

لم ينطق أحد منهم بقسم ولا شعار؛ كانت حرارة الأكف المتشابكة في ظلمة يناير أبلغ من كل كلام. عهد صامت بين أربعة رجال، ذاب فيه الخوف، وتوحدت فيه الدماء، ليعرف كل واحد منهم أنه لم يعد يقاتل لنفسه، بل لحياة الثلاثة الباقين.

نغمة هاربة

استراحة قديمة خلف الخطوط، سيناء، ربيع 1973

كانت شمس الظهيرة تصب لهيبها فوق دروب سيناء برتابة خانقة. على حافة الطريق الترابي الالتفافي، استقرت استراحة مهجورة شيدت من كتل الأسمنت والحجر الجيري، تركها عمال المحاجر قبل سنوات من حرب سبعة وستين، لتتحول إلى محطة ظل عابرة للدوريات الإسرائيلية المتحركة بين القواعد الخلفية ومواقع الدعم.

توقفت سيارتا جيب عسكريتان أمام المدخل، محركاتهما تطلق هديراً متعباً وسط سحابة غبار بيضاء استقرت ببطء على هياكل الحديد الساخنة. ترجل الجنود طلباً للراحة وتفقد

خراطيم تبريد المحركات، بينما اتجه دافيد مباشرة نحو الداخل التماساً لمهرب من وهج الأفق الممتد بلا نهاية.

في الداخل، كان السكون سميكاً وثقيلاً كالهواء نفسه. كسر الظل حدة القيظ، لكن المكان احتفظ برائحة عتيقة لمزيج من المازوت المنسكب، ورطوبة الجدران المتآكلة، والرمال الناعمة التي ذرتها الرياح عبر النوافذ المفتوحة بلا زجاج.

فوق صندوق "عوزي"ألقى دافيد بندقيته الـ خشبي فارغ، وانزلق بظهره مستنداً إلى حائط خشن تتساقط قشور طلائه القديم. كانت أطراف أصابعه متخدرة من قابض السلاح واهتزاز عجلة القيادة خلال ساعات المسير الأربع، وعيناه مجهدتين من انعكاس الشمس على بياض الرمال.

أخرج من جيب سترته دفتر ملاحظاته الأسود الصغير، قلّب صفحاته بإبهامه، لكنه لم يجد رغبة في تدوين كلمة واحدة؛ كان الشعور بالفراغ يلتهم كل فكرة قبل أن تكتمل.

تحركت عيناه ببطء في أرجاء المكان، متتبعاً بقع العتمة في الزوايا، حتى وقع بصره في ركن مظلم خلف صفائح حديدية صدئة على حقيبة قماشية ممزقة خرج منها طرف خشبي منحنٍ.

نهض ببطء، ونفض التراب عن ركبتيه. اقترب من الركن، وأزاح صفيحة معدنية تآكلت حوافها، ثم جثا على ركبة واحدة.

كان صندوقاً خشبياً لآلة كمان صغيرة، مهترئ القشرة، شُق لوحه الخلفي بصدع طولي غائر كأن ثقلاً سقط عليه في لحظة رحيل متعجلة. مسح دافيد بأصابعه طبقة الغبار الكثيفة عن السطح؛ ظهر خشب الصنوبر القديم ببريقه الخافت، وبقيت أربعة أوتار مشدودة على جسر مائل، تآكل اثنان منها بفعل الصدأ، بينما بدا الوتران الآخران صامدين بشكل مريب في وجه الزمن والحرارة.

جلس دافيد فوق حافة صندوق ذخيرة منقلب. لم يملك قوساً، ولم يكن جسد الآلة سليماً ليحمل صدى كاملاً، لكنه وضع قاعدة الكمان تحت

ذقنه بصورة تلقائية كأن جسده تذكر وضعاً غاب عنه عامين كاملين.

أغمض عينيه.

تحسست أنامله الخشنة لوحة العزف. كانت المفاتيح قاسية، لكن الذاكرة الحركية استيقظت في ثوانٍ؛ أصابع كونسرفتوار حيفا، وساعات التدريب الطويلة تحت توبيخ الأب الصارم الذي كان يريد منه عزفاً رياضياً منضبطاً لا تشوبه عاطفة، بينما كانت الحرب هنا في سيناء تحيل تلك الأصابع إلى مجرد أدوات سحب للزناد وتلقيم للخزن.

حرّك سبابته اليمنى ونقر الوتر الثاني.

خرجت رنة قصيرة، جافة ومكتومة بسبب الصدع في الصندوق الخشبي، لكنها دوّت في فراغ الاستراحة كطلقة مكتومة. توقف نبض الهواء لثانية، ثم عاد ونقر الوتر مرة أخرى، ليتسلسل صدى نغمة مرتجفة سرعان ما تلاشت في زوايا الغرفة الأسمنتية.

بدأ يرتجل لحناً مقتضباً من مقطوعة لباخ؛ نغمات مبتورة، تعرج بسبب تشوه الأوتار

والكسر الغائر، لكنها حملت في طياتها غرابة مطلقة وسط هذا الفراغ المحاصر بالبارود، كأنها صوت كائن حي محتضر يصرخ بلغة لا يفهمها الرمل.

انشق سكون الغرفة بصرير مفاجئ حين دُفع الباب الحديدي الخارجي بعنف.

وقف يونا عند العتبة، يتكئ بكتفه على الإطار، ممسكاً بيده زمزمية ماء معدنية تتقاطر منها قطرات تكثف باردة. كانت سترته مفتوحة الصدر، وعلى شفتيه تلك الابتسامة المعتادة التي تمزج الاستخفاف بالثقة المطلقة. ركل علبة صفيح صدئة بقدمه لتتدحرج مصدرة ضجيجاً معدنياً فجاً، ثم أطلق صفيراً متهكماً:

ما الذي تفعله بحق الجحيم يا موتسارت؟ — هل تعتقد أن قادة الأركان بنوا لك مسرحاً هنا في الصحراء؟

توقفت أصابع دافيد عن الأوتار، لكنه لم ينزل الكمان عن كتفه فوراً. فتح عينيه ببطء، ونظر إلى يونا ببرود هادئ دون أن ينبس ببنت شفة.

خطا يونا خطوتين إلى الداخل، ورفع فوهة رشاشه الخفيف ليشير بها بوقاحة نحو رأس الآلة المهشم:

تخلَّص من هذه القمامة البالية.. وجودها هنا — يثير الغثيان. لا مكان لهذه التفاهات بيننا؛ هذه الأرض قاحلة، لا تفهم سوى صوت جنازير الدبابات وهدير مدافع الميدان. هل تظن أن الرمل سينصت إلى سيمفونيتك حين تبدأ المدافع في العزف؟

أنزل دافيد الآلة برفق ووضعها على فخذيه، ثم التقت عيناه بعيني يونا مباشرة، وصوته يخرج منخفضاً وحاداً:

السيمفونية تذكرني بأني إنسان يا يونا.. — أملك اسماً وذاكرة وحياة كنت أحبها، السلاح الذي تحمله في يدك يمحو كل ذلك، يجعلك مجرد ترس صدئ في آلة لا تهتم بوجودك.

قهقه يونا بصوت جهوري ارتد بين الجدران، ثم رفع الزمزمية إلى فمه وجرع منها جرعة طويلة، مسح بعدها فمه بظهر يده وقال بلهجة حاسمة لا تخلو من قسوة:

هذا الترس الصدئ هو وحده ما يحميك من — أن تدفن في هذا الرمل! استفق من أوهامك.. الإنسان الرقيق الذي تبكيه في داخلك هو أول من سيموت رعباً حين تنطلق الرصاصة الأولى. نحن مظليون، نحن قبضة الجيش التي لا ترحم، ولسنا رهباناً يبحثون عن خلاص أرواحهم فوق تلال محترقة.

أشاح دافيد بوجهه، ولم يرد.

هز يونا رأسه ساخراً، واستدار عائداً إلى وهج الظهيرة، وصوته يبتعد مع خطوات حذائه الثقيل:

دقيقتان ونتحرك.. تخلص من هذا الحطب — القديم والحق بالدورية قبل أن يلاحظ الملازم غيابك.

عاد السكون ليطبق على المكان مجدداً، أثقل وأكثر وحشة من ذي قبل.

بقي دافيد جالساً بمفرده فوق الصندوق المنقلب. مرر إبهامه ببطء شديد فوق الوتر النحاسي المتبقي، فسرت فيه ذبذبة أخيرة، رنين خافت اختنق سريعاً في جوف الخشب المكسور.

نظر إلى الآلة طويلاً، ثم وضعها برفق شديد فوق الرمال الناعمة في الركن المظلم، بعيداً عن مجرى الأقدام، كأنه يودع جثة صغيرة يخشى عليها من التدنيس.

الباردة، وعلق "عوزي"نهض، التقط بندقيته الـ حزامها الجلدي الخشن فوق كتفه حتى غاص في لحمه، ثم خطا نحو فتحة الباب باتجاه الشمس الحارقة، تاركاً النغمة المكسورة مدفونة في ظلال الاستراحة.

قوارب الموت والحياة

إحدى البحيرات المُرّة، خط القناة ــ صيف 1973

المطاط الأسود حين يمتص شمس أغسطس
.يتحول إلى سطح كاوٍ لا يطاق

على امتداد الشاطئ الرملي المتآكل، كانت السرية كلها غارقة في اللهاث. ستة قوارب مطاطية ضخمة تزن الواحدة منها ما يقارب المائة وأربعين كيلوجراماً دون عتاد، تحيط بكل منها مجموعة من سبعة مقاتلين. لم تكن هناك أسماء تُنادى تحت صفارات مدربي الصاعقة، بل أرقام وصرخات خشنة تبتر الهواء:
«!«ارفع.. خطوة.. اضبط توازنك يا بني آدم

كان سيد في مقدمة القارب الثالث، حافة المطاط السميكة تضغط مباشرة على عظم ترقوته اليسرى، وعضلات رقبته مشدودة كأوتار حديدية، حذاؤه الميري يغوص في الطين اللزج مع كل خطوة متزامنة. خلفه مباشرة كان جندي من الشرقية تلتصق "عبد العاطي"يُدعى خوذته بظهر سيد، يئن تحت الثقل الخانق دون

أن يجرؤ على إرخاء قبضته. في الخلف، كان إبراهيم يصارع وزناً يبدو له أثقل من جذوع الخشب التي كان يرفعها في الورشة، فمه مفتوح يلتقط أنفاساً مسمومة برائحة الكبريت والرمال الساخنة، وعيناه مغلقتان تقريباً من العرق الحارق المتصبب من جبهته.

!انزل للمايّة

جاء صوت الرائد محيي

جافاً كطلقة مسدس، لا انفعال فيه ولا شفقة

انزلقت الأقدام إلى الماء العكر. برودة القاع لم تجلب راحة، بل زادت من لزوجة الطين الذي حاول ابتلاع أحذيتهم الثقيلة. صعد الرجال إلى متون القوارب في ثوانٍ معدودة بحركات ميكانيكية حُفرت في أجسادهم على مدار مئات الساعات.

فتحي كان على الميمنة، مجدافه الخشبي في قبضته كأنه جزء من ذراعه. لا ينظر إلى أحد، ولا يلتفت يميناً أو يساراً؛ نظرته مثبتة على الدوامة الصغيرة التي يحدثها لوح الخشب كلما غاص في الماء. يضرب بقسوة، ويسحب بقوة

تفوق حاجته، كأنه يفرغ في باطن البحيرة شحنة غيظ لا تنتهي.

براحة على الخشب يا فتحي.. الميّة — متتخانقش معاها.

قالها سيد بنبرة خفيضة، مقتضبة، لم تستدعِ التفاتاً، لكنها جعلت ضربات مجداف فتحي تهدأ قليلاً لتنسجم مع الإيقاع الجماعي.

حلّ الليل على مسرح التدريب، ومعه تغيرت القواعد بالكامل.

انطفأت الأضواء، وتلاشت الصفارات، وبات الصوت في عُرف التدريب جريمة تُعاقب عليها السرية كلها بالزحف في الوحل. تحولت البحيرة إلى حوض أسود هائل، لا يقطعه سوى انعكاس باهت لنجوم بعيدة.

ضربة.. سحب.. رفع.

دون طرطشة. دون صوت لارتطام الخشب بسطح الماء. فقط احتكاك مكتوم، وحفيف أجساد تفرز ملحها في الظلام.

بيشوي كان يجلس في منتصف القارب، يجدف بيده السليمة ويتحامل على كتفه الملتئم حديثاً. لم يكن يشكو، لكن عضلة فكه كانت تنقبض في صمت مع كل سحبة قوية. التقت عيناه بعيني إبراهيم المقابل له في العتمة؛ كان صدر إبراهيم يعلو ويهبط بسرعة خطرة، عروق رقبته منتفخة، كأنه يختنق بالهواء الساكن.

لم يتكلم بيشوي. مد يده الحرة لثانية واحدة، وضغط بخفة على ركبة إبراهيم، مجرد إشارة صامتة لتثبيت إيقاع تنفسه قبل أن ينهار في القاع. بلع إبراهيم ريقه الجاف، وأومأ برأسه في الظلمة إيماءة غير مرئية تقريباً، ثم عدّل قبضته على المجداف المبلل.

مر قارب المجموعة الأولى بمحاذاتهم، كأنه شبح أسود ينساب بلا ملامح. لا أحد ينظر إلى الآخر؛ كانوا جميعاً أطرافاً في جسد واحد يزحف نحو غاية مجهولة الموعد، لكنها باتت أقرب من حبل الوريد.

«!شاطئ! سحب وتأمين»

همس الملازم في اللاسلكي بصوت كتمته الريح.

اندفعت مقدمة القارب تصطدم برمال الضفة الأخرى الوعرة. قفز سيد أولاً، وغاصت ساقاه حتى الركبتين في الماء، وسحب الحبل الأمامي بقوة ألغت المسافة، بينما ترجل الباقون ورفعوا الهيكل المطاطي ليجرّوه خارج نطاق التيار.

انهارت أجسادهم فوق الرمال الرطبة في ظلال ساتر وهمي أقيم خلف الخطوط. لم يكن هناك كلام، فقط صوت أنفاس متلاحقة تشبه حشرجة صدور معذبة. ألقى إبراهيم بجسده على ظهره، يحدق في السماء العاتمة، ذراعاه ممدودتان فوق الرمل كأنهما خُلعتا من مفصليهما.

هو الحمل ده حقيقي يا سيد؟ —

همس إبراهيم بعد صمت طويل، بصوت مجهد لا يكاد يتجاوز شفتيه.

كان سيد جالساً القرفصاء بجوار القارب الأسود المنكفئ، يمسح حبات الرمل العالقة بسبطانة سلاحه بقطعة قماش جافة. لم يرفع عينيه عن بندقيته، لكنه أجاب بهدوء ثقيل:

القارب فاضي بيبقى تقيل يا إبراهيم.. لما — يتملي سلاح ورجالة هتعرف يعني إيه حمل.

صمت إبراهيم، وحدق في القارب المطاطي الأسود الرابض أمامه كالتابوت الضخم. فتحي كان يجلس على مسافة مترين، يعض على نصل عود قصب جاف، بينما بيشوي يربط شريط حذائه الذي تهرأ بفعل الملح.

لم يكن أحد منهم بحاجة لأن يسأل عن الغد؛ ذلك المطاط الأسود لم يكن مجرد وسيلة تدريب، كان الجسر الوحيد الذي سيعبرون به إلى الضفة الأخرى، وهناك، لن يكون أمام هذا القارب سوى احتمالين: إما أن يحملهم إلى فجر النصر، أو يبتلعهم قاع القناة في صمت.

يقين كاذب

مبنى الكرياه، مقر الاستخبارات العسكرية ، تل أبيب — أواخر صيف 1973"أمان"

كان الهواء داخل الممر الطويل في الطابق الثاني يلسع الجلد ببرودة اصطناعية جافة، تفصل شاغلي المبنى تماماً عن قيظ ساحل المتوسط في الخارج.

لا نوافذ مفتوحة على الشارع؛ فقط ستائر خشبية عريضة تحجب زرقة البحر، ومصابيح نيون باهتة تطلق طنيناً خافتاً لا يتوقف، يرتطم بالأرضيات البلاستيكية الرمادية اللامعة. خلف الأبواب المغلقة ذات الأقفال الرقمية، كانت أجهزة التلكس تطبع أحبالاً من الورق المثقوب، بينما تتصاعد رائحة تبغ الغليون الممتزجة بعبير القهوة السوداء المحترقة.

في مكتب رئيس قسم الأبحاث، جلس الجنرال يائير وراء مكتب خشبي عريض غارق في ملفات كرتونية صفراء حملت أختاماً حمراء بكلمة واحدة: سري للغاية.

كان يائير يقلب طرف شواربه الفضية بسبابته، ممسكاً بقلم رصاص ذي سن مبري بدقة، وعيناه الزرقاوان الباردتان تمسحان جدولاً بيانياً يلخص حركة قطارات الشحن وسفن النقل السوفييتية التي أفرغت حمولاتها مؤخراً في موانئ الإسكندرية وبورسعيد.

أمامه، وقف الضابط الشاب إيتان، مسؤول ملف "الجبهة الجنوبية" في وسترته العسكرية ، مكوية بعناية فائقة، لكن عينيه حملتا هالات إرهاق تكشف عن ليالٍ طويلة قضاها في مطابقة صور الاستطلاع الجوي التقطتها طائرات "الفانتوم" فوق امتداد قناة السويس.

وضع إيتان مجلداً أسود خفيفاً فوق حافة المكتب، ولم ينتظر إذناً ليتحدث، بل خرج صوته مشحوناً بريبة لم يستطع ترويضها:

— سيدي الجنرال.. الاستطلاع الصباحي يؤكد أمراً لا يتسق مع فرضية التدريب المعتاد. الصور تظهر نشر بطاريات صواريخ سام-6 جديدة في مواقع مجهزة مسبقاً، ونقل أكثر من أربعين جسراً عائماً إلى مناطق التجمع القريبة من الشاطئ الغربي، إلى جانب تفريغ آلاف

القوارب المطاطية خلف السواتر. السادات لا يستعرض عضلاته هذه المرة.. هذا انتشار لمعركة حقيقية.

توقف قلم يائير عن الحركة. رفع رأسه ببطء مدروس، ونظر إلى وجه الضابط الشاب بنظرة تجمع بين الشفقة الأبوية والتعالي الصارم الذي صقلته نشوة نصر حرب الأيام الستة.

زفر يائير دخان غليونه بهدوء حتى تشكلت سحابة بيضاء رقيقة بين وجهيهما، ثم اتكأ بمرفقيه على سطح المكتب، مشابكاً أصابعه:

إيتان.. كم سنة قضيتها في قسم الأبحاث؟ — سنتين؟ يبدو أنك ما زلت تقرأ حركة الرمال بعيني طفل يخشى الظلام.

لكن يا سيدي، التقارير الميدانية من خط — —بارليف

قاطعه يائير بحركة خفيفة من راحة يده، حركة هادئة أغلقت النقاش قبل أن يتسع:

خط بارليف صُمم ليمتص صدمة جيوش — القارة بأكملها، وليس جيشاً مهزوماً يجر أذيال

خيبته منذ ست سنوات. انظر إلى الصورة الكونسبت) التي اتفق) "النظرية"الكبرى واقرأ عليها الكبار هنا وفي واشنطن: مصر لن تجرؤ على إطلاق رصاصة واحدة نحو الشرق ما لم تمتلك مقاتلات قاذفة بعيدة المدى تضرب عمق قادرة على تهديد "سكود"مطاراتنا، وصواريخ مدننا.. هل يملكون ذلك الآن؟

تردد إيتان لثانية، وابتلع ريقه:

لا.. الروس لم يزودوهم بالسلاح الهجومي — الاستراتيجي حتى الآن، ولكن تحركاتهم التكتيكية—

تحركات تكتيكية لإلهاء شعبهم الجائع —!

ضحك يائير ضحكة مقتضبة وجافة، وفتح درف ملف أزرق وضعه فوق تقرير إيتان كأنه يدفنه:

تدريبات خريفية روتينية سموها تحرير41

مناورة سنوية يبتلعون فيها ميزانيتهم ليثبتوا لشارعهم أنهم ما زالوا على قيد الحياة. السادات رجل مسرحي يحب الخطب الرنانة، لكنه

يعرف جيداً أن عبور مياه القناة نحو سواترنا هو انتحار صريح لقواته تحت رحمة سلاح الجو الإسرائيلي.

مد يائير يده نحو القلم الرصاص مجدداً، وخط بخط مائل عريض على غلاف المجلد عبارة احتمال اندلاع حرب: " :مقتضبة باللغة العبرية ضئيل جداً".

رفع رأسه نحو الضابط المتردد، وأردف بنبرة قاطعة لم تترك مساحة لجدال آخر:

اذهب إلى بيتك يا إيتان.. خذ إجازتك — الأسبوعية، واقضِ السبت مع عائلتك على شواطئ نتانيا. طائراتنا تحرس السماء، وحصوننا في سيناء لا تنام. الحرب لن تقع لأنهم ببساطة.. لا يقدرون عليها.

أدى إيتان تحية عسكرية باهتة، والتقط ما تبقى من أوراقه، ثم استدار خارجاً من الغرفة.

أغلق الباب خلفه بنقرة حديدية رنانة، وعاد إلى الممر المعقم والمثلج، لكن ذلك الهدوء المفرط لم يمنحه الطمأنينة؛ بل ترك في حلقه غصة مجهولة، كأن ذلك الغرور الراسخ في عقول

الجنرالات ليس درعاً يحميهم، بل عصابة حريرية سوداء لُفت بعناية فوق عيونهم، بينما على الضفة الأخرى من القناة، كانت الأرض تهتز تحت أقدام رجال يتهيأون لتمزيق الوهم بأيديهم العارية.

سكون ما قبل العاصفة

ضفتا قناة السويس ـــ صباح السبت، 6 أكتوبر 1973

كان الصباح يبسط رداءً من الخمول الزائف فوق امتداد مياه القناة الهادئة، مياه بدت كمرآة فضية صلبة لا يشوبها تموج، تعكس قرص شمس خريفية باهتة لا تحمل لسعة الصيف ولا برودة الشتاء.

على الحافة الطينية للضفة الغربية، جلس ثلاثة جنود من سرية مجاورة بملابس داخلية رمادية رثة، أقدامهم عارية تتدلى في الماء العكر. أحدهم كان يفرك قميصه الميري بقطعة صابون نابلسي خشنة ويضحك بصوت عالٍ عمداً ليخترق الهواء الساكن، بينما استند آخر إلى جذع نخلة مبتورة يمتص عود قصب جاف ويلقي بقشوره بلا مبالاة نحو التيار. مسرحية دقيقة رُسمت تفاصيلها في مكاتب العمليات بالقاهرة، ونُفذت بحرفية رجال يعرفون أن حركة غير محسوبة قد تفتح عليهم جحيم المدفعية.

لكن خلف الساتر الترابي المصري، على بعد خطوات قليلة من هذا الاسترخاء المفتعل، كانت الأرض تحت الحفر تنبض بضغط هائل مكتوم.

في جوف الخندق المغطى بشباك التمويه وحصير الحلفا، كان الظل يبتلع أربعة رجال وعتادهم.

كان الصيام قد ترك طبقة بيضاء جافة على شفاه إبراهيم. جلس القرفصاء وظهره مسنود إلى الجدار الرملي، يمسك بقطعة قماش مغموسة في قليل من زيت السلاح، يمسح بها مفاصل بندقيته الآلية لآخر مرة، ثم يعيد مسحها بخرقة جافة تماماً؛ رمال الضفة الأخرى لا ترحم السلاح المشبع بالزيت، حبة واحدة قد تحشر الترباس في اللحظة الخطأ. كانت حركاته ميكانيكية، صامتة، وعيناه مائلتان نحو الأرض كأنه يزن خشباً في ورشته القديمة، يقيس الفارق بين الموت والحياة بسُمك ملليمترات معدودات.

بجواره، كان بيشوي يفحص محتويات حقيبته الطبية القماشية المعلقة على كتفه. أعاد ترتيب لفائف الشاش المعقم، وعلب المورفين

الصغيرة، وحقن التيتانوس، ثم تفقد حزامه الميري ليتأكد من ثبات مطهر الجروح. لم تكن في عينيه رجفة؛ بل هدوء جراح يتهيأ لدخول غرفة عمليات لا يعرف إن كان سيخرج منها حياً. التفت نحو فتحي، الذي كان يجلس على صندوق ذخيرة فارغ، يفرك إبهامه بنصل سكينه القتالي بحركة عصبية منتظمة.

خف على الحد يا فتحي.. السلاح جاهز —.

قالها بيشوي بصوت خفيض لم يتجاوز المتر الذي يفصلهما.

رفع فتحي عينيه، عيناه كانتا متقدتين بجمود غريب، نظرة تخلت عن كل غضب عشوائي قديم. وضع السكين في غمده الجلدي وثبته في ساقه، ثم هز رأسه ببطء دون أن ينطق. كان صمته أبلغ من كل ثوراته السابقة؛ طاقة غضب هائلة تم ضغطها وتكثيفها في نقطة واحدة تنتظر لحظة الانفجار.

في مقدمة الخندق، عند فتحة مراقبة ضيقة لا تتسع إلا لمنظار ميدان، وقف سيد.

كانت خوذته الحديدية مثبتة بإحكام فوق رأسه، وحزام ذقنه الجلدي مشدوداً حتى كاد يلامس تفاحة آدم. لم يتحرك منذ نصف ساعة. عيناه مسلطتان عبر الفتحة نحو الساتر الترابي الإسرائيلي الشاهق على الضفة المقابلة؛ ذلك الجدار الرملي المائل بزاوية ستين درجة، الذي رُفع ليقنع العالم بأن خلفه مستحيلاً لا يمكن اختراقه.

رفع سيد معصمه الأيسر ببطء.

كانت عقارب ساعته الميري الروسية تشير إلى الواحدة وعشرين دقيقة ظهراً. نبضات عروق معصمه كانت واضحة تحت الجلد الأسمر، قوية ومضبوطة مع ثواني الساعة. مد يده إلى جيب قميصه، تحسس قطعة القماش التي لف بها ورقة صغيرة كُتبت بخط أحمد، ثم أعاد يده إلى مقبض سلاحه.

لم يكن هناك مجال للشك، ولا مساحة للخوف؛ كل خطوة مشوها في الطين، كل تدريب قارب تجمدت فيه أطرافهم في ليالي الشتاء، كان يصب في هذه الساعة تحديداً.

على الجانب الآخر من القناة، فوق قمة الساتر الترابي لخط بارليف، كان المشهد يغرق في سكون جنائزي من نوع آخر.

، أقدس أيام السنة العبرية، قد "كيبور"كان يوم فرض صمته المطلق على الموقع الحصين لم يكن هناك صوت ."ميراح"المعروف باسم محركات دبابات تدور للتسخين، ولا أوامر لاسلكية تضج في الممرات الأسمنتية المسلحة. الإذاعة الإسرائيلية أغلقت بثها منذ ليلة البارحة، وتركت الأثير لفراغ بارد.

في باحة الموقع الداخلية، جلس يونا على كرسي قماشي قابل للطي تحت مظلة مموهة، وسترته العسكرية ملقاة بإهمال فوق برميل وقود فارغ، وصدره عارٍ يتصبب منه عرق الظهيرة. كان يتثاءب بكسل، ويقشر برتقالة بسكين جيب صغير، يرمي قشورها نحو فتحة خندق المواصلات، وعيناه تراقب بحبات من الملل جنود الاستطلاع المصريين على الضفة الغربية وهم يستحمون في النهر.

..انظر إليهم يا دافيد —

قال يونا بنبرة تهكمية وهو يبتلع فصاً من البرتقال:

يغسلون سراويلهم تحت أعيننا. قادتهم — يهددون بالحرب كل أسبوع، وجنودهم يهربون من الحر إلى الماء كقطيع جاموس. إذا كانت هذه هي المعركة التي تنتظرها، فيمكنك أن تعود إلى حيفا غداً.

كان دافيد يقف على بعد أمتار، مستنداً إلى كيس رمل عند إحدى دشم الحراسة، خوذته مائلة إلى معلقة بإهمال "عوزي"الخلف قليلاً، وبندقية الـ على كتفه. لم يكن يشاركه الضحك.

كان دافيد ينظر إلى الأفق البعيد، خلف خط الأشجار على الضفة الغربية. كان هناك شيء غير مريح في هذا الهواء الساكن؛ سكون مفرط لا يشبه طبيعة الجبهات العسكرية. مياه القناة تبدو هادئة أكثر من اللازم، حتى طيور النورس التي اعتادت التحليق فوق خط المياه اختفت تماماً وكأنها غادرت غريزياً قبل هبوب عاصفة.

هناك شيء غير طبيعي يا يونا — ..

همس دافيد، وعيناه لا تزالان معلقتين بالضفة المقابلة:

— الشاطئ هادئ جداً.. هدوء يشبه غرف الموتى.

أطلق يونا ضحكة قصيرة مستهزئة، ونهض لينفض فتات البرتقال عن بنطاله:

— إنه يوم الغفران يا فيلسوف.. حتى الرياح تصوم معنا اليوم. استرخِ، لن يجرؤ أحد على إيقاظنا من هذه القيلولة.

استدار يونا ليدخل نحو المخبأ المكيف، تاركاً دافيد وحيداً تحت الشمس. مد دافيد يده ولمس لوحة الأرقام المعدنية المعلقة على عنقه؛ سرت في جسده قشعريرة مباغتة، كأن هواء الظهيرة الحار تحول فجأة إلى تيار جليدي.

الساعة الآن: الواحدة وخمسون دقيقة.

على الضفة الغربية، تحرك قائد الفصيلة زاحفاً في ممر الخندق حتى وصل إلى نقطة سيد ورفاقه. لم ينطق بكلمة؛ أشار بسبابته نحو معصمه، ثم فتح كفه المضمومة ببطء.

فُهمت الإشارة فوراً دون صوت.

اختفى الجنود الذين كانوا يستحمون في النهر في غمضة عين، كأن الأرض ابتلعتهم. داخل الخنادق، تحولت الأجساد إلى كتل من الفولاذ المشدود. وضع إبراهيم خوذته وربط حزامها، بينما أمسك فتحي بحبل القارب المطاطي الرابض في مربضه تحت الساتر الرملي مباشرة. وقف بيشوي خلفهما، يضغط بكفيه على أشرطة حقيبته ليتأكد من إحكامها.

وقف سيد في المقدمة، وأسند فوهة بندقيته إلى حافة الخندق، موازية لمستوى بصره.

كانت دقات قلبه تتسارع، لكن يديه كانتا ثابتتين كثبات الصخر. تنفس ببطء، واستنشق رائحة الطين المشبع بالملح، ورائحة البارود الراكد في خزائن السلاح.

الواحدة وثلاث وخمسون دقيقة.

الكون كله بدا وكأنه كتم أنفاسه. الصمت بلغ درجة من الثقل جعلت طنين النيون القديم في ذاكرتهم يبدو كأنه صراخ. لا صوت لريح، لا

حركة لماء، فقط دوران بطيء وثقيل لعقرب الثواني وهو يزحف نحو الرقم اثني عشر.

الواحدة وخمس وخمسون دقيقة.

فجأة، انشق الأفق الغربي خلف الساتر المصري عن صوت لم تألفه الأرض من قبل؛ زئير هائل قادم من أعماق السماء، كأن الريح نفسها تمزقت إلى شظايا معدنية. قبل أن يرتد الصدى، لمعت السماء فوق رؤوسهم بأسراب المقاتلات المنخفضة، تلامس قمم الأشجار بسرعة البرق متجهة نحو الشرق، لتبتلع سكون سبع سنوات في كسر من الثانية، وتعلن أن القيامة قد بدأت.

زئير العبور

شاطئ القناة ـــ الساعة 14:00، السبت 6 أكتوبر 1973

الارتطام الأول لم يأتِ من الأرض، بل انحدر من السماء.

عبرت مقاتلات الميج والسوخوي على ارتفاع منخفض، تلامس قمم شجر الكافور على حافة الشاطئ؛ ضغط الهواء الناجم عن المحركات النفاثة صفع جدران الخندق، وذرى الرمل في عيون الجنود قبل أن يرتد الصدى نحو عمق سيناء.

ثم انفتحت الأرض خلفهم دفعة واحدة.

أكثر من ألفي مدفع أطلقت قذائفها في الثانية ذاتها. ضربة الصوت الأولى لم تكن مجرد دوي في الأذن، بل صدمة عنيفة ضربت الأقفاص الصدرية وحبست الأنفاس، كأن الهواء طار بالكامل من الرئات وحل محله رذاذ

البارود وعصف الكبريت المحترق. اهتز القاع الطيني تحت بسطار سيد حتى كاد يفقد توازنه.

التصق سيد بجدار الخندق، فاتحاً فمه قليلاً كما تدربوا لحماية أذنيه من التمزق، ويداه تقبضان بغريزة لا واعية على حمالتي بندقيته فوق صدره. لم ينظر لأعلى؛ كانت عيناه مثبتتين على الساتر الإسرائيلي الشاهق المقابل.

على الضفة الأخرى، تحول الجدار الرملي إلى جحيم يتفجر ببطء؛ أعمدة هائلة من التراب الأسود والخرسانة ترتفع مع كل ارتطام ثقيل لقذائف الميدان، حواجب الدشم ونقاط المراقبة تتطاير شظايا تحت سحابة دخان حجبت قرص الشمس تماماً.

انطلقت صفارة الملازم قائد الفصيلة، مقتضبة وحادة وسط هذا الركام من الصوت: «قوارب.. انزِل!»

تحركت الفصيلة كلها في اللحظة نفسها كأطراف جسد واحد.

انحنى سيد مع زملائه نحو القارب المطاطي الأسود الرابض في مربضه؛ قبضت أصابعه

على مقبض المطاط السميك بجوار إبراهيم، بينما تكفل فتحي وبيشوي وباقي جنود المجموعة بالجانب الآخر. لم يكن هناك وقت للتردد؛ العضلات حفظت الحركة من شهور التدريب المنهكة في ترعة الخطاطبة والبحيرات المرة.

جرّوا الهيكل الثقيل عبر الفتحة الترابية المجهزة، وانحدروا في الطين اللزج. كان الحذاء يغوص حتى منتصف الساق مع كل خطوة، وثقل القارب يميل بعنف نحو مجرى الماء. تعثر جندي من سرية مجاورة على حافة المنحدر، فمال ثقل القارب فجأة ناحية سيد؛ شدّ سيد عضلات ظهره وغرس كعب حذائه في الطين بكل ما أوتي من عزم، متحملاً الصدمة حتى استعاد إبراهيم توازنه، وتفادوا انقلاب الهيكل قبل ملامسة الحافة.

«ادفع!» صرخ رقيب الفصيلة من خلفهم.

ألقى سيد ثقله مع المجموعة إلى الأمام، فاصطدم بطن القارب بماء القناة متسبباً في رذاذ بارد امتزج بسخونة الوجوه المعفرة بالدخان.

تسلق الجنود الحواف المطاطية في ثوانٍ بحركات خاطفة. كان سيد يجلس في المقدمة، حريصاً على أن تظل فوهة بندقيته مرفوعة لأعلى بعيداً عن بلل الماء. غاصت مجاديف فتحي وإبراهيم وباقي الأفراد في المياه العكرة؛ ضربات سريعة متوترة، تصارع موجات ارتدادية خلفها تساقط القذائف على الضفة المقابلة.

انفجر رشاش متوسط من نقطة حصينة لم تدمرها قذائف التمهيد بالكامل.

انهمرت طلقات نحاسية على سطح الماء على بعد أمتار من القارب، متسببة في نوافير صغيرة. انحنى رأس إبراهيم غريزياً وتصلبت يداه على المجداف لثانية، فمد سيد يده اليسرى سريعاً وثبت لوح المجداف مع ضربة الماء وهو يهمس بصوت لاهث ومحكوم وسط الهدير:

كمل يا إبراهيم.. ضربة منتظمة، هنوصل —.

استعاد إبراهيم إيقاعه، وضرب فتحي الماء بكل قوته كأنه يمزقه، وعيون الجميع مشدودة إلى

الشاطئ الشرقي الذي يقترب بسرعة: أربعون متراً.. عشرون.. عشرة.

ارتطمت مقدمة القارب بالوحل الأسود أسفل الساتر الإسرائيلي بارتدادة امتصتها أجسادهم.

قفز سيد أولاً إلى الماء الضحل الذي وصل إلى ركبتيه، تبعه فتحي، وسحبا الحبل الأمامي لتثبيت القارب في الطين حتى يترجل باقي أفراد المجموعة ويفرغوا المعدات وسلالم الحبال.

وقف سيد للحظة على أرض سيناء؛ أنفاسه تخرج متلاحقة وحارقة من صدره، بسطاره يغوص في الطين المشبع برائحة الحريق، وبندقيته الآلية مرفوعة أمام صدره تحمي تقدم رفاقه. لم ينظر خلفه؛ بل رفع رأسه إلى ارتفاع الساتر الرملي الشاهق الذي بدأت قذائف المدفعية تتراجع عنه استعداداً لاقتحام المشاة، ثم التفت نحو إبراهيم وبيشوي وهما يفرغان السلالم، وقال بصوت خشن ومكتوم:

طلعوا السلالم. ع الساتر —.

صعود الجحيم

أسفل الساتر الترابي لخط بارليف
الساعة 14:15، السبت 6 أكتوبر 1973

الرمال تحت الأقدام لم تكن أرضاً ثابتة، بل منحدر شبه عمودي من الحصى والغبار الحارق، يرتفع لأكثر من عشرين متراً في مواجهة السماء الملبدة بالدخان.

عند شريط الشاطئ الضيق، كانت قوارب سلاح المهندسين قد اصطدمت بالوحل بالتزامن مع موجات المشاة الأولى. فِرَق المهندسين تحركت كخلايا نحل وسط الوحل؛ فكّوا أحزمة مضخات المياه التوربينية الثقيلة، ومدوا خراطيم المطاط المقوّاة بأسلاك الصلب في مياه القناة. ثوانٍ معدودة، ثم انطلق زئير المحركات الميكانيكية، وانفجرت نفاثات المياه بضغط مرعب تجاوز ثلاثين متراً في الهواء.

ضربت ألسنة الماء المضغوطة جسد الساتر الرملي مباشرة.

أمام عيون الجنود، بدأ الجدار الأسطوري ينهار؛ الرمال المتماسكة تفتتت وتحولت إلى شلالات هادرة من الوحل البني السائل، تجرف معها أكياس الرمل والأوتاد الخشبية وتندفع هابطة نحو القناة في مجارٍ متسعة تمهيداً لفتح ثغرات الكباري.

لكن على بعد أمتار من مجرى المياه الجارف، كان على فصيلة المشاة أن تتسلق المنحدر الصلب بأظافرها.

سلالم الحبال.. ثبّت الأوتاد واطلعوا !

صاح ملازم الفصيلة وهو يغرس عقب مسدسه في خاصرة جندي تردد عند حافة المنحدر، بينما كان الرصاص يصفر فوق الرؤوس بقسوة.

ألقى إبراهيم حزمة السلالم الحبلية إلى الأمام، وغرس أوتاد التثبيت في الرمال الرطبة عند القاعدة، ثم استند بركبتيه وهو يلهث، عرقه يغسل طبقات التراب عن وجهه المشقق من الصيام. التفت نحو سيد الذي كان يغرس مقدمة بسطاره في شق رملي ليصنع موطئ قدم، وقال

إبراهيم بصوت مبحوح وابتسامة مجهدة شقت شفتيه الجافتين:

— دا لو كان الزبون طالب دولاب خشب زان في الدور العشرين بأسانسير عطلان، مكنتش شيلته الشيلة دي يا سيد! الشغلانة دي عايزة والساتر ده مايل على .."صنعة وميزان مَيّة" عيبه وميخلصش فيه قرش!

رد سيد دون أن يبتسم، لكن نبرته المقتضبة حملت عزم الرفيق الميداني وهو يشد حزام بندقيته للأمام:

— اوزنه برجلك واطلع يا إبراهيم.. مفيش وقت للنجارة.

بدأ الصعود القاسي.

كانت زاوية الميل الحادة تجعل كل خطوتين للأعلى تعقبهما زحلقة للأسفل في رمال ناعمة "آر بي جي"لا ترحم. ثقل الذخيرة وقنابل الـ وخزن الكلاشينكوف المربوطة على الصدور تحول إلى عبء يمزق عضلات الظهر.

الحناجر تشتعل جفافاً من حرارة البارود والصيام، والأنفاس تخرج كحشرجة متقطعة.

فجأة، فُتح وابل من الرصاص من دشمة خرسانية جانبية نجت من ضربة المدفعية التمهيدية.

إسرائيلي تمسح "ماج"انهمرت طلقات رشاش المنحدر بنيران متقاطعة. تطايرت شظايا الحجر الرملي، وصرخ جندي من قنا المجاورة وسقط متدحرجاً نحو أسفل الساتر وهو يقبض على فخذه النازف.

ارتطم سيد بصدره في منحدر الرمل وغاص بمرفقيه في التراب ليتفادى الرصاص المار على ارتفاع شبر واحد من خوذته. سحب بندقيته الآلية، وحول مفتاح الأمان إلى وضع الرماية الفردية، ثم رفع فوهة السلاح ببطء وسدد نحو فتحة الدشمة الدخانية التي ينبثق منها وميض الرشاش، وأطلق ثلاث رصاصات محسوبة استقرت في حافة الفتحة الخرسانية لتجبر الرامي على خفض رأسه لثوانٍ.

استغل فتحي تلك الثواني باندفاعه المعهود؛ ركض منحني الظهر، يغرس أصابعه في الرمال كالمخالب، متجاوزاً الانزلاق بحركة وحشية حتى ثبت قنبلة يدوية دفاعية في كفه، وسحب صمام أمانها بأسنانه، ثم ألقاها بدقة داخل خندق المواصلات المؤدي للدشمة لتسكت صوت الرشاش في انفجار مكتوم تبعه عمود من الغبار الأبيض.

في الخلف، تعثر إبراهيم بعدما انهارت تحت قدمه كتلة رملية رطبة جرفتها مياه المهندسين المجاورة، فكاد ينزلق نحو القاع مجدداً. مد سيد يده اليمنى، وقبض بقوة على حزام ظهر إبراهيم حتى ابيضت مفاصل أصابعه، وسحبه بنترة عضلية واحدة إلى حافة شق صخري متماسك.

التقط إبراهيم أنفاسه وهو يستند بكتفه إلى كتف سيد، وقال وهو يمسح التراب العالق بحاجبيه:

تسلم إيدك يا أسطى.. الحسبة كانت هتفرك — منا على سنّة.

على بعد خطوات، كان بيشوي جاثياً على ركبتيه في فجوة أحدثتها قذيفة هاون، يمزق سترة زميلهم الجريح من قنا برباط شاش ضاغط، عيناه مثبتتان على الجرح دون أن يرفع رأسه نحو الرصاص المتطاير:

— اضغط هنا بيدك يا بطل.. النزيف وقف، والمهندسين تحت هيشيلوك للقارب.

واصلت المجموعة الزحف المنهك صعوداً. السلالم الحبلية اهتزت تحت وطأة مئات الجنود الصاعدين في اللحظة نفسها على امتداد قطاع الساتر. خطوة تدفعها ركبة، وأخرى يسحبها كوع، حتى لامست أيدي سيد حافة القمة الرملية العريضة.

رفع سيد رأسه بحذر فوق الحافة الأخيرة.

انفتحت أمامه سيناء في مداها الممتد تحت غيوم الدخان؛ شبكات الأسلاك الشائكة المقطعة، وأبراج المراقبة المحترقة، وسيارات الإسعاف العسكرية الإسرائيلية تحاول الفرار عبر المدقات الرملية الخلفية تحت قصف المدفعية البعيدة.

صعد جندي من طليعة الفصيلة يحمل سارية خشبية قصيرة مثبت عليها علم مصر المصنوع من القماش الخشن؛ ركض وسط الغبار وثبت قاعدتها في جوف كيس رملي فوق سقف إحدى الدشم المدمرة.

ارتفع العلم ورفرف وسط سكون مفاجئ أعقب انفجاراً بعيداً.

وقف سيد على القمة، بندقيته في قبضته، وعيناه ترصدان خنادق خط بارليف الممتدة أمامه في العمق. لم يكن في وجهه تعبير احتفال، بل تركيز جندي يعرف أن الصعود لم يكن سوى الباب؛ وأن الحرب الحقيقية، رجل لرجل، تبدأ الآن داخل تلك الحصون.

داخل المتاهة

خنادق نقطة حصينة بخط بارليف عصر السبت، 6 أكتوبر 1973

الهبوط إلى بطن الحصن كان يشبه الانزلاق إلى قبر رطب شُيّد على عجل.

انقطعت سماء سيناء المفتوحة فجأة عند عتبة خندق المواصلات الأسمنتي؛ ابتلعت العتمة زرقة الأفق وحلت محلها غلالة رمادية من غبار الخرسانة المطحونة. هنا، فقدت المدافع زئيرها المدوّي في الخارج، واستحالت الانفجارات البعيدة إلى دقات ثقيلة ومكتومة تهز جدران الممر كأنها نبض خافت لقلب يحتضر تحت أطنان من قضبان السكك الحديدية وقوالب البازلت.

أسلاك الهاتف الميداني، سوداء وممزقة كأوردة مقطوعة، كانت تتدلى من السقف المنخفض وتلامس خوذاتهم. على الأرض، لم تكن هناك رمال؛ بل طبقة لزجة من خليط الماء المتسرب وفوارغ طلقات نحاسية تدحرجت تحت البسطار العسكري بصرير حاد ومزعج.

تقدم سيد بحذر غريزي، كتفه الأيمن يحك الجدار الإسمنتي البارد، سبطانة بندقيته الآلية متقدمة بخطوة عن بصره، وأصبعه يستقر بحساسية قاتلة على واقي الزناد. خلفه مباشرة، كان فتحي يتحرك كوتر مشدود، عيناه تلتهمان كل زاوية مظلمة، بينما ثبت بيشوي وإبراهيم ظهرهما لتأمين الممر الخلفي من أي خروج مباغت من فتحات الدشم المتفرعة.

عند انعطافة ممر بزاوية تسعين درجة، لمح سيد طرف حذاء عسكري غريب ممدوداً بلا حراك، وفوقه وميض معدني خافت.

رفع سيد قبضته اليسرى، فتجمدت المجموعة كتمثال واحد. سحب نفساً خفيفاً من أنفه؛ رائحة البارود المحترق كانت كثيفة لدرجة تلسع الحلق، لكن امتزجت بها رائحة أخرى، رائحة دم طازج حار يتبخر في مساحة مغلقة.

أشار سيد لفتحي برأسه نحو الجانب الأيسر. اندفعا معاً في جزء من الثانية؛ سيد ينخفض بجسده نحو الأرض، وفتحي يغطي المدى الأعلى.

لم تكن هناك كمائن؛ بل جندي إسرائيلي ملقى على ظهره، خوذته ملقاة بعيداً، وبندقية الـ الخاصة به مغروسة في كومة أكياس "عوزي" رمل متهدمة. كان القتال هنا قد دار واختنق قبل دقائق بيد فصيلة طليعة أخرى. مر سيد فوق الجسد دون أن يطيل النظر، لكن دقات قلبه كانت تدق في صدغيه بقسوة؛ الفارق بين البقاء هنا والتحول إلى جثة ملقاة في الزاوية لا يتعدى سرعة الضغط على الزناد.

تفرع الممر إلى بهو داخلي يؤدي إلى غرفة العمليات الميدانية للنقطة.

الباب الحديدي الثقيل كان مخلوعاً من مفصلاته جزئياً بفعل عصف قذيفة مدفعية سابقة. تسللوا إلى الداخل؛ كان المشهد يحمل ثقلاً غريباً نزع عن الحصن كل هالته التي ملأت الدنيا صخباً لسنوات.

مروحة سقف حديدية كانت تدور ببطء عبثي وتطلق صريراً متقطعاً. على طاولة خشبية عريضة، بقيت أطباق طعام بيضاء نصف مأكولة؛ شرائح خبز جافة، وقطع جبن، وتفاحة خضراء قُطعت منها قضمة واحدة وتُركت

لتسوّد في الهواء. على الأرض، بجوار جهاز لاسلكي يصدر فحيحاً مستمراً من الشوشرة الميتة، تناثرت صور فوتوغرافية صغيرة: امرأة شابة تبتسم على شاطئ بحر، وطفل يمسك بلعبة خشبية.

توقف إبراهيم في وسط الغرفة، استند بظهره إلى دعامة حديدية مائلة، وألقى نظرة فاحصة على السقف المسلح الذي صُبّت فيه قضبان حديدية بأحجام لم يرها في ورش البناء. مسح وجهه المعفر بالتراب بكف يرتعش قليلاً من فرط الإجهاد، وخرج صوته مبحوحاً وخافتاً، خالياً من سخريته المعتادة:

— عاملين لنفسهم بيبان حديد وسقوف خرسانة عشان ميموتوش.. ونسيوا إن الحيطان لما بتتقفل على أصحابها بتبقى أول تربة يتفنوا فيها. شغل تقيل، بس العضم كان هش يا سيد.

رد سيد وهو يتفقد بابا جانبيا مفتوحا يفضي إلى خندق خلفي:

— العضم خاف يا إبراهيم.. واللي يخاف وهو جوه الحديد مبيحمهوش درعه.

في تلك اللحظة ذاتها، على بعد خمسين متراً في الممر الخلفي المظلم المؤدي إلى فتحة الهروب نحو رمال سيناء المفتوحة، كان دافيد يركض كالمحموم، وبسطاره ينزلق في الوحل.

كانت يده اليسرى تقبض بقوة هستيرية على سترة يونا الذي كان يدفعه للأمام. أجهزة التنفس في صدر دافيد كانت تمزقه، ونظارته الميدانية سقطت وتحطمت منذ دقائق في مدخل النقطة. في أذنيه، لم يكن هناك سوى صوت الصراخ الذي سمعه قبل دقائق عبر أجهزة اللاسلكي من النقاط المجاورة: «الحصون تسقط.. إنهم بالمئات فوق السواتر.. النجدة!»

توقف دافيد لثانية واحدة عند باب الطوارئ الفولاذي، والتفت برأسه برعب نحو الممر المظلم الذي هربا منه.

عبر فتحة تهوية صغيرة تخترق الجدار الخرساني، لمح ظلالاً لأجساد بالزي الكاكي المرقط؛ بنادقهم مشرعة للأمام، خطواتهم بطيئة، ثقيلة، ومحسوبة كأنهم يتحركون داخل بيت يعرفون غرفه منذ أجيال. لم يرَ وجوهاً محددة في الظلمة، بل رأى سكوناً غريباً في

تلك الظلال، سكوناً كان أشد وطأة على نفسه من صوت كل القنابل التي سقطت على رؤوسهم منذ الظهيرة.

!تحرك يا دافيد —

جذبه يونا بقسوة نحو المنحدر الخارجي، وخرج صوته مختنقاً برعب غير مألوف:

!الموقع انتهى.. إنهم بالداخل —

انغلق باب الطوارئ خلفهما بنقرته الحديدية الصامتة، وابتلعتهما رمال سيناء الهاربة نحو العمق.

في بهو النقطة، وصل سيد إلى عتبة الباب الجانبي المفتوح.

وقف لحظة يراقب مدخل النور الخافت القادم من نهاية الخندق المهجور، وأثر أقدام رطبة انزلقت على الرمال نحو المجهول. انحنى بيشوي وتفقد خزنة ذخيرة بندقية ملقاة على الأرض وألقاها لفتحي، بينما بقي سيد يحدق في الممر الفسيح أمامه.

كان يعلم، في قرارة نفسه، أن تحطيم هذه الجدران لم يكن النهاية؛ بل كان مجرد شق القفل عن صحراء واسعة تمتد لكيلومترات من النار، حيث ينتظرهم كل من فرّ من هذا الجحر ليعيد ترتيب صفوفه.

التفت سيد إلى رفاقه الثلاثة، مسح عرقه بياقة قميصه الخشنة، وقال بصوت خفيض وحازم:

— الحصن اتأمّن.. نطلع فوق وناخد ساتر للرد الجاي من العمق.

برلين: خيوط التاريخ

مكتب الملحق العسكري، السفارة المصرية في برلين — صباح اليوم التالي، أكتوبر 2023

مع بزوغ ضوء الصباح البارد، انقشعت عتمة الليل في شوارع برلين تاركة خلفها سماءً رمادية ثقيلة ورذاذاً خفيفاً يبلل زجاج النافذة المزدوج. داخل المكتب، كان المصباح الصغير قد أُطفئ، واستقرت المقتنيات في موضعها على الطاولة: الحقيبة الجلدية المتشققة، السلسلة المعدنية ذات الحواف المتآكلة، والبطاقة الورقية الباهتة.

دلف العقيد حسام إلى الغرفة بخطوات بطيئة، ممسكاً بيده ورقة واحدة مطبوعة خرجت للتو من جهاز الفاكس المشفر التابع لمكتب الاتصال العسكري. لم يكن في وجهه أي أثر للنوم؛ بدا عليه ذلك التركيز الصارم الذي يفرضه الواجب حين تتشابك السجلات القديمة بوقائع غير متوقعة.

كان المستشار طارق عبد الحميد جالساً وراء مكتبه، وأمامه كوب شاي لم يلمسه منذ نصف ساعة. رفع بصره فور دخول حسام، وتابع حركة يده وهي تضع الورقة البيضاء في المساحة الخالية بين الحقيبة والسلسلة.

السجلات العسكرية في القاهرة بعتت الرد —.

قال حسام وهو يسحب المقعد المقابل ويجلس، مسنداً ساعديه إلى طرف الطاولة.

اعتدل طارق في جلسته، وسحب الورقة نحوه بهدوء:

الاسم طلع مظبوط؟ —

أومأ حسام برأسه إيماءة جافة:

مطابق تماماً لكل حرف في السلسلة — والبطاقة الورقية القديمة: سيد زكريا خليل، من مركز قنا. جندي مجند في القوات المسلحة، تاريخ التحاقه بالخدمة خريف 1970، وسلاحه الأصلي كتائب الصاعقة.

مرر طارق عينيه على السطور القليلة المطبوعة بحبر أسود دقيق. كانت الورقة تخلو

من أي تفاصيل إنشائية؛ مجرد بيانات رقمية وتدرج رتبي ينتهي عند تاريخ محدد في الربع الأخير من عام 1973.

ومكتوب إيه عن خدمته ومصيره بعد الحرب؟ —

سأل طارق وهو ينظر إلى الخانات الأخيرة.

أجاب حسام بنبرة خفيضة تخلو من أي زيادة:

ولا حاجة. مفيش أي بيانات إضافية. السجلات بتقول إنه انضم لقوات الصاعقة على الجبهة قبل العمليات، وخدم ضمن التشكيلات المقاتلة هناك. مع بداية معارك أكتوبر 73، فُقد في سيناء. ومن وقتها انقطعت أخباره بالكامل؛ لا فيه إشارة لاستشهاد مؤكد، ولا ورد اسمه في أي من كشوف الأسرى اللي اتبادلتها مصر مع الجانب التاني بعد وقف إطلاق النار، ولا اتلقى ليه أي جثمان في رفات الشهداء المتبادل عبر الصليب الأحمر.

سكت حسام لثوانٍ، ثم أشار بطرف إصبعه إلى كلمة واحدة طُبعت في نهاية السطر الأخير:

خمسين سنة يا طارق، والملف مقفول —
."مفقود عمليات" :بالكلمة دي بس

ساد الصمت الغرفة، صمت هادئ لا يقطعه إلا صوت رذاذ المطر الخفيف في الخارج وطنين جهاز التدفئة المكتوم في زاوية الحائط.

مد طارق يده وتناول البطاقة العسكرية القديمة بحذر بين سبابته وإبهامه. دقق في الملامح الشابة، الوجه النحيل، والنظرة المستقيمة الثابتة، ثم أعادها إلى جوار الحقيبة الجلدية:

يعني أهله في الصعيد ميعرفوش عنه أي — حاجة من أكتوبر 73 لحد اللحظة دي؟

رد حسام بصوت هادئ ومقتضب:

أهله استلموا إخطار رسمي بعد الحرب — بفقدانه، وبمرور السنين اعتُبر في حكم المفقود طبقاً للقانون العسكري. محدش عرف خط سيره انتهى فين، ولا إزاي اختفى، ولا مين شافه آخر مرة. الملف فضل متجمد في الأرشيف زي مئات الملفات اللي وقفت عند حرب أكتوبر.

وإدارة العمليات والسجلات طلبت إيه — دلوقتي؟

سأل طارق وهو يطوي الورقة طية خفيفة.

اعتدل حسام في جلسته وأجاب:

طلبوا إرسال أصل المقتنيات بالكامل؛ — السلسلة، والبطاقة، والشنطة، مع صورة طبق الأصل من محضر الاستلام الرسمي الخاص بالشاب الألماني اللي سلّم الحاجة هنا، عشان يتحرز كل ده في حقيبة دبلوماسية مقفولة وتتسلم للجنة تحقيق عسكرية مشكّلة في القاهرة.

أومأ طارق موافقاً، ثم سحب ورقة بيضاء وقلماً من حامله المكتبي:

هبدأ دلوقتي أحرر محضر الاستلام — الدبلوماسي وأقيد فيه كل قطعة ومواصفاتها بدقة، ونرفق معاه صورة إفادة السجلات عشان الحقيبة تتحرك في أول رحلة للقاهرة.

نهض حسام ووقف للحظة أمام الطاولة، ملقياً نظرة أخيرة على المقتنيات القديمة وهي تستقر

ساكنة تحت ضوء النهار الواضح، مدركاً أن
وراء هذه الأوراق الصامتة بداية خيط طويل،
طُوي قبل نصف قرن في رمال الصحراء،
وبات الآن في طريقه للعودة إلى وطنه.

الإقلاع في الجحيم

مطار عسكري غرب القناة ـــ ليل 7 أكتوبر 1973

كان الظلام في أرض المطار دامساً إلا من وميض أحمر خافت ينبعث من كبائن القيادة؛ لا توجد كشافات إنارة مدرج ولا أضواء ملاحة. وحدها مراوح طائرات «الميل-8» العملاقة كانت تدور محدثة عاصفة صاخبة تلفح الوجوه بذرات الرمل ورائحة الكيروسين المحترق.

ركضت مجموعة الفدائيين في خط منتظم منحنين الظهور لتفادي شفرات المراوح الدوارة. كانت ستراتهم القتالية مثقلة بخزائن الذخيرة، وألغام الدبابات المسطحة مربوطة بإحكام في ظهورهم، وقواذف الـ «آر بي جي» معلقة على أكتافهم.

كان سيد في المقدمة، قبضته مشدودة على مقبض بندقيته الآلية، وخلفه مباشرة بيشوي وإبراهيم، بينما كان فتحي يحمل مع سيد صندوق ألغام إضافياً يجرانه بثبات رغم ثقله.

عند باب الطائرة الخلفي المفتوح، كان ضابط التوجيه يلوح بإصبعه للأمام وهو يصرخ وسط ضجيج المحركات الصامّ:

اركبوا بسرعة.. مفيش دقيقة تأخير! خط — الممرات لازم يتقفل قبل أول ضوء.. الاحتياطي المدرع للعدو بيتحرك بكامل طاقته الضرب الكباري!

قفز الأربعة إلى جوف الطائرة المظلم، تبعهم بقية رجال الفصيلة. كان الداخل يضيق بالعتاد وأنابيب الوقود الإضافية. جلس سيد على المقعد المعدني القابل للطي بجوار النافذة المستديرة الصغيرة، وسحب حزام الأمان الجلدي وربطه حول وسطه، بينما جلس إبراهيم بجواره ملاصقاً له كتفاً بكتف.

كان وجه إبراهيم شاحباً، تتصبب منه قطرات عرق مسحها بكم أفرولـه، ثم التفت نحو سيد ومال عليه ليسمعه صوته فوق هدير المروحة:

هو إحنا طالعين بارتفاع كام يا سيد؟ —

أجاب سيد بنبرة جافة وهادئة، ونظراته مثبتة نحو الباب الذي أُغلق للتو بعنف:

مفيش ارتفاع يا إبراهيم.. الطيار هيمشي — ببطن الطيارة فوق الرمل تقريباً عشان الرادارات وصواريخ الهوك متلقطناش.

ابتلع إبراهيم ريقه، وأمسك بالمسبحة الصغيرة الملفوفة حول معصمه. بجواره، كان بيشوي يتفقد أقفال صواعق قذائف الآر بي جي بهدوء تام، كأنه يجلس في عنبر إنشاص، ثم التفت إلى فتحي وابتسم ابتسامة مقتضبة وهو يربت على ركبته:

جهزت دراعك للدبابات يا فتحي؟ —

رد فتحي وهو يشد حزام خوذته الفولاذية بإحكام:

لما تشوف الجنزير بيقرب، متسألنيش عن — دراعي.. اسألني عن الرصاص اللي هيفضل معايا.

ارتج جسد الطائرة المعدني بعنف فجائي مع انطلاق عزم المحركات؛ اهتزت الأرض تحت العجلات لثوانٍ معدودة، ثم انقطعت الصلة بالأرض وارتفعت الطائرة فجأة في الهواء، لتبتلعها عتمة الليل الكاحلة.

في الكابينة المظلمة، لم يكن يضيء عتمة الوجوه سوى شعلة صغيرة من لوحة القيادة في المقدمة. أخرج الطيار أقصى ما تملكه المروحية السوفيتية الثقيلة؛ كانت الطائرة تتأرجح يمنة ويسرة مع مطبات الهواء الساخن، تطير على ارتفاع أمتار قليلة فوق قمم الكثبان الرملية لسيناء المحتلة. كان كل جندي في الداخل يدرك حقيقة الموقف: طلقة واحدة من رشاش أرضي عيار نصف بوصة، أو اصطدام خفيف بأي نتوء صخري في هذا الظلام، يعني انفجار الطائرة بمن فيها دون أدنى فرصة للنجاة.

أغمض إبراهيم عينيه وهو يهمس بآيات قرآنية خافتة. أما بيشوي فكان يرسم علامة الصليب بسبابته فوق سترة نجاته الصوفية.

نظر سيد عبر النافذة الصغيرة نحو الخارج. لم يكن هناك سوى سواد مطبق، وصحراء ممتدة تحت أجنحة المروحية تخفي في طياتها مصيراً لا يعلمه إلا الله. مد يده داخل جيبه الصدري، وتحسس الورقة المطوية للخطاب القديم

وسلسلته المعدنية؛ ملمس الورق والحديد أعاد إلى قلبه ثبات طمي الجنوب.

فجأة، اشتعل ضوء أحمر متقطع فوق باب الكابينة، وصرخ المساعد بنبرة حادة اخترقت السكون المشحون:

تجهيز للنزول! دقيقة واحدة ونوصل نقطة — الإبرار!

تحركت الأيدي فوراً؛ فُكت أحزمة الأمان، وسحب كل مقاتل سلاحه وصندوق ذخيرته إلى حجره، واستعدت الأقدام لملامسة أرض المعركة التي لا رجعة منها.

الإنزال خلف الخطوط

ممرات سيناء ـــ فجر 7 أكتوبر 1973

انفتح الباب الجانبي للمروحية فجأة، فانقضت على الكابينة دوامة من الرياح الليلية الباردة مشبعة بحبات رمل خشنة ضربت الوجوه بعنف.

في الأسفل، لم تكن الأرض مستوية؛ صخور حادة وسفوح جبلية تبرز أشباحها من بين عتمة الفجر الكاذب. هبطت الطائرة إلى ارتفاع مترين فوق سطح هضبة صخرية منبسطة، وثبتت لثوانٍ معدودة وسط عاصفة من الغبار الكثيف الذي أثارته شفرات المروحة.

انزل.. انزلوا كلكم —!

صرخ قائد الطائرة وهو يشير بسبابته نحو الفراغ المعتم.

قفز سيد أولاً، ارتطمت قدماه بالأرض الصخرية بصلابة، وامتصت ركبتاه الصدمة

بحركة تدرب عليها مئات المرات في إنشاص. التفت فوراً وتلقف صندوق الألغام الثقيل من يدي فتحي، ثم تبعه بيشوي وإبراهيم بالقفز، متدحرجين بسرعة لتفادي تيار الهواء العاصف.

لم تنتظر الطائرة ثانية واحدة؛ ارتفعت محركاتها في هدير مكتوم، واندفعت مبتعدة إلى أسفل الوادي، تلتصق بالمنخفضات حتى تلاشت تماماً، ليعود إلى المكان سكون موحش، بارد وثقيل، كأن الوجود كله قد تفرغ من حولهم.

جثم الأربعة على بطونهم بين الشقوق الصخرية، أسلحتهم موجهة نحو الفراغ، وأنفاسهم تتصاعد في الهواء البارد كبخار خفيف. مرّت دقيقة كاملة دون حركة؛ الأعين تتأقلم مع الظلمة، والآذان تصغي إلى كل خشخشة رمل يحركها الهواء.

أشار الملازم قائد المجموعة بحركة صامتة من كفه: التجمع عند السفح المنخفض.

زحف سيد، وخلفه فتحي يجر صندوق الألغام بحذر متفادياً أي احتكاك معدني قد يصدر صوتاً في جوف الليل. عند الصخرة الكبيرة، جلس الجميع القرفصاء.

أخرج القائد خريطة صغيرة من جيبه الداخلي، وأشعل للحظة واحدة مصباحاً بجلبة حمراء لا يتعدى ضوؤه دائرة سنتيمترات قليلة:

— إحنا هنا.. مدخل الممر. الإسفلت اللي تحت ده هو المسار الإجباري لأي نجدة مدرعة إسرائيلية جاية من الشرق عشان تدعم دشم القناة أو تضرب الكباري. اللواء المدرع هيتحرك مع أول ضوء، وممنوع عربية واحدة أو دبابة تعدي الممر ده. فاهمين؟

همس الجميع في صوت واحد خافت:

— تمام يا فندم.

التفت القائد نحو سيد وفتحي:

— انتو الاتنين مع بيشوي.. التلغيم في أضيق نقطة في المنحنى؛ الألغام تنزل تحت طبقة الرمل الخفيفة، والأسلاك والشكك تتثبت في

الصخور الجانبية. إبراهيم، انت معايا على قمة التبة دي.. قناصة ومراقبة وتأمين بالآر بي جي.

تحرك سيد فوراً. نزل متسللاً على ركبتيه نحو المسار الضيق الذي يشقه الطريق بين جبلين شاهقين. كانت رائحة البرد الصحراوي لا تشبه رطوبة النيل؛ رائحة جافة قاسية، لكن يديه كانتا تعملان بثبات غريب.

جثا على ركبتيه، وأخرج الحربة العسكرية من غمدها، وبدأ يحفر في رمال حافة الطريق. اقترب منه فتحي وهو يفك صمامات الأمان لألغام الدبابات المسطحة ويسلمه إياها واحدة تلو الأخرى:

— الحتة دي محكومة يا سيد.. الدبابة الأولى لو لبست اللغم هنا، الرتل كله هيقف غصب عنه ومش هيعرف يلف.

— وعشان كده لازم نثبت الألغام بتسلسل، مش لغم واحد.

قال سيد بصوت خفيض وهو يغرس اللغم الأول ويهيل فوقه الرمال بمهارة، مسوياً

السطح بأطراف أصابعه حتى عاد الطريق يبدو طبيعياً تماماً تحت ضوء الفجر الرمادي الخافت.

كان بيشوي يرقد على بعد أمتار قليلة، بندقيته الآلية مثبتة بين صخرتين تسدان زاوية الرؤية، وعيناه لا تفارقان المنعطف البعيد للطريق. أدار وجهه نحوهما وهمس بنبرة حادة ومقتضبة:

خلصتوا؟ النور بدأ يشق الجبل من ورا.. — ومفيش وقت.

غطى سيد اللغم الأخير بحفنة من الحصى الدقيق، ثم سحب نفسه بهدوء إلى الخلف صاعداً السفح الصخري ليجاور بيشوي في المربض، بينما صعد فتحي إلى شق صخري أعلى، مجهزاً مدفع الآر بي جي ومثبتاً القذيفة الخارقة في فوهته.

بدأت خيوط الفجر الأولى تكشف عن تضاريس ممر متلا الوعرة؛ جدران صخرية مسننة تعانق السماء، ووادي ضيق لا يتسع لأكثر من مرور مركبتين متجاورتين.

في الأعلى، رفع إبراهيم منظاره المكبر، وفجأة سكن جسده تماماً. مسح عدسة المنظار بطرف كمه، ثم مال برأسه نحو الأسفل حيث يربض سيد، ونطق بكلمات خافتة لكنها كانت كفيلة بإشعال الدم في العروق:

— سيد.. غبار على أول الطريق من الشرق. بيقربوا.

الاصطدام الأول

ممرات سيناء ـــ صباح 7 أكتوبر 1973

تحول عمود الغبار البعيد إلى نقط سوداء تكبر تدريجياً، يرافقها صوت ارتطام جنازير ثقيلة بالأسفلت، هدير منتظم يرتد صداه بين جدران الممر الصخري مثل قرع طبول جوفاء.

كان الرتل يتقدم بحذر؛ دبابتان من طراز «سنتوريون» في المقدمة، يعلو برجهما هوائي لاسلكي طويل يتأرجح مع حركة الطريق، وخلفهما ثلاث مدرعات نصف مجنزرة تحمل جنوداً خوذاتهم الفولاذية تلمع تحت شمس الصباح الباكرة.

في المربض الصخري، انبطح سيد على بطنه، واضعاً خده الأيمن فوق الأخمص الخشبي لبندقيته الآلية. إلى جانبه، كان بيشوي يرقد بلا حراك، أصابعه مشدودة حول مقبض سلاحه، بينما كان فتحي في الشق الصخري الأعلى، يسند أنبوب قاذف الآر بي جي على حافة صخرة صوانية، عينه اليمنى ملتصقة بفتحة التنشين.

ساد سكون تام في الممر؛ لا حركة ولا صوت سوى اقتراب الحديد الميت.

وصلت الدبابة الأولى إلى بداية المنحنى الضيق، وبدأت تخفض سرعتها لتلتف حول الصخرة الكبيرة، وفي اللحظة التي لامس فيها جنزيرها الأيمن طبقة الرمال التي غطاها سيد قبل ساعتين، انشق الصمت.

انفجار مدوٍّ أطاح بمقدمة الدبابة نحو الأعلى؛ عمود كثيف من الدخان الأسود وكتل الحصى تطاير في الفضاء، بينما تمزق جنزير الدبابة الحديدي وطار كشريط مهترئ ليرتطم بالجبل. مالت الدبابة على جانبها مشتعلة، لتسد الطريق بالكامل وتجبر المركبات التي خلفها على التوقف المفاجئ.

اضرب يا فتحي —!

انطلق صوت القائد حاداً وقاطعاً من جهاز اللاسلكي الصغير.

لم يتردد فتحي ثانية واحدة؛ ضغط زناد الآر بي جي. خرجت القذيفة الصاروخية بلهب خلفي أثار غباراً كثيفاً حول موضعه، وشقت الهواء

بصفير حاد قبل أن تستقر في المنطقة الفاصلة بين برج الدبابة الثانية وهيكلها. تحولت الدبابة إلى كتلة من الشرر والدخان، وتصاعدت ألسنة لهب برتقالية من فتحة طاقمها.

فتح جنود المدرعات النصف مجنزرة أبوابها الخلفية، وبدأوا يقفزون إلى رمال الممر في حالة ارتباك شديدة، محاولين الاحتماء خلف الصخور وجثث الدبابات المحترقة، وهم يطلقون رشقات عشوائية من بنادقهم الرشاشة نحو سفوح الجبال.

نيران موجهة، طلقة بطلقة.. متصرفوش — ذخيرة!

هتف سيد بنبرة جافة وهو يرى الجنود يتناثرون في قاع الوادي.

سحب سيد زناد بندقيته، رصاصة واحدة خاطفة أسقطت جندياً كان يحاول نصب مدفع رشاش متوسط بجوار جنزير المدرعة الأولى، ثم أتبعها برصاصة ثانية استقرت في إطار المركبة. بجانبه، كان بيشوي يقتنص حركة أي جندي يحاول الالتفاف نحو المنحدر، بينما كان

إبراهيم من موقعه المرتفع يرصد بالمنظار ويوجه طلقات دقيقة تشل حركة أي محاولة للهجوم المضاد.

استمر الاشتباك لدقائق معدودة؛ اشتعال الدبابات ورائحة البارود والحديد المحترق خنقت هواء الممر الضيق. أدركت القوة الإسرائيلية المتبقية أنها وقعت في كمين خانق لا مجال فيه للمناورة، فانحدرت المدرعة الأخيرة بسرعة إلى الخلف في محاولة للفرار والابتعاد عن مرمى النيران.

توقف إطلاق النار تدريجياً، ليعود الصمت المشحون بدخان الحرائق إلى الممر الصخري.

مسح فتحي السخام الأسود عن جبهته بكف يده، ونظر إلى أسفل الوادي حيث كان الرتل يحترق، ثم التفت نحو سيد ونطق بابتسامة متعبة:

— الطريق اتقفل بالضبة والمفتاح يا سيد.. مفيش جنزير هيعدي هنا بعد النهاردة.

أنزل سيد بندقيته بحذر، لكن عينيه ظلتا تراقبان نهاية الطريق الممتد نحو الشرق، وقال بهدوء:

دي كانت الطليعة بس يا فتحي.. الجاي — هيكون أصعب، والطيارات مش هتسيبنا في حالنا.

استدعاء النخبة

قاعدة تل نوف الجوية ـــ صباح 8 أكتوبر 1973

داخل غرفة العمليات الميدانية بالقاعدة، كان الهواء ثقيلاً بدخان السجائر ورائحة القهوة الباردة. أجهزة اللاسلكي لا تكف عن إصدار أصوات تشويش حادة، تتخللها استغاثات متقطعة وبلاغات متلاحقة من قادة المحاور المختلفة في سيناء.

كان دافيد روزنبرغ يجلس في زاوية الغرفة على صندوق ذخيرة خشبي، مستنداً بظهره إلى الجدار الإسمنتي البارد. أفروله العسكري لا يزال مغطى بغبار دشم خط بارليف المنهارة، وبندقيته الـ «عوزي» ملقاة بين قدميه. على بعد خطوات منه، كان يونا يتكئ على طاولة خرائط، يشعل سيجارة بأصابع ترتجف خفيفاً، وعيناه زائغتان تنظران إلى الفراغ.

فُتح الباب الحديدي للغرفة فجأة، ودخل قائد لواء المظلات، الكولونيل أمنون، وعلى وجهه

ملامح تجهم صارمة. ألقى بملف جلدي أحمر فوق الطاولة، وتوقف ضجيج الغرفة تدريجياً.

انتبهوا جميعاً —.

قال القائد بنبرة قاطعة وهو يشير إلى خريطة سيناء المعلقة خلفه:

اللواء المدرع الذي تحرك فجر أمس لدعم — القوات عند المضائق تعطل بالكامل. طليعة الرتل دُمّرت في كمين محكم عند مدخل ممر متلا. هناك قوة صاعقة مصرية نزلت بالمروحيات ليلاً وأغلقت الممر بالألغام والأسلحة المضادة للدبابات.

تبادل الجنود نظرات قلقة. سحب يونا نفساً عميقاً من سيجارته، وسأل بصوت مشحون بالتوتر:

والدبابات لم تستطع اختراقهم؟ —

رد الكولونيل بجفاف:

تضاريس الممر ضيقة جداً والمدرعات — أصبحت أهدافاً سهلة ومحبوسة في الوادي. الطيران حاول التدخل، لكن صواريخ الدفاع

الجوي وتمركز المصريين داخل الشقوق الصخرية يعطل ضربهم بدقة. المدرعات لا يمكنها العمل هناك بمفردها بعد الآن.. المشاة المظليون هم الحل الوحيد.

التفت القائد نحو المجموعة التي تضم دافيد ويونا:

كتيبتكم ستتحرك فوراً بالمروحيات إلى — نقطة قريبة من السفح الشرقي للممر. المهمة واضحة ومباشرة: تطهير الجبال والوديان المحيطة، وتصفية عناصر الصاعقة المصرية المنتشرة في الشقوق الصخرية لفتح الطريق أمام الدبابات للوصول إلى الجبهة.

أومأ الجنود برؤوسهم في صمت، وبدأوا في جمع ستراتهم الواقية وخزائن الذخيرة.

نهض دافيد ببطء، وتناول بندقيته من الأرض. مد يده إلى جيبه الصدري الداخلي، وتحسس دفتر مذكراته الصغير ذا الغلاف الأسود، ثم نظر إلى يونا الذي كان يربط حزام خوذته الفولاذية بملامح يغلب عليها الوجوم.

تظن أنهم نفس الجنود الذين عبروا القناة — أول أمس؟

همس يونا وهو يلقي عقب السيجارة تحت حذائه.

أحكم دافيد حزام سلاحه حول كتفه، وأجاب بهدوء وهو يتجه نحو باب الكابينة المؤدي إلى مهبط الطائرات:

من يقاتل في عمق هذه الجبال خلف خطوطنا لا يهمه العودة يا يونا.. استعد، لأننا ذاهبون إليهم بأقدامنا.

فخ الوديان

ممرات سيناء ـــ ظهيرة 9 أكتوبر (1973)

كانت الشمس في كبد السماء تصب لهيبها على صخور الجرانيت، فتحولت الشقوق والوديان إلى مراجل تغلي بالحرارة والسراب. لم يعد هناك صوت محركات دبابات؛ الصمت ثقيل، يقطعه حفيف الرياح الجافة واحتكاك الأحذية العسكرية بالحصى.

هبطت مفرزة المظليين الإسرائيليين بقيادة وحدتهم الميدانية عند السفح الشرقي، وبدأت بالانتشار على شكل نسق مفتوح؛ جنود يتقدمون بحذر، أجسادهم ملتصقة بجدران الصخر، وأسلحتهم مصوبة نحو القمم والفتحات الجبلية.

كان دافيد روزنبرغ يتحرك في الجناح الأيمن، وأصابعه تضغط على مقبض الـ «عوزي». خلفه بخطوات، كان يونا يمسك ببندقيته الـ «فال»، وعيناه لا تكفان عن مسح الحواف

الصخرية في الأعلى، وأنفاسه تتصاعد مسموعة من شدة التوتر.

على الجانب الآخر، وفي تجويف صخري طبيعي يطل على المنحنى الضيق للوادي، كان سيد زكريا رابضاً بلا أدنى حركة. غطى رأسه وسلاحه بقطعة خيش بلون الرمل، حتى بات جزءاً لا يتجزأ من الصخرة التي يستند إليها. على بعد أمتار منه، كان بيشوي يرقد في شق موازٍ، وإبراهيم في موقع حاكم بالأعلى يراقب حركة تقدم الدورية عبر منظاره.

لم يكن هناك أي استعجال؛ الصاعقة المصرية في الجبل تعمل بمبدأ النفس الطويل: لا إطلاق لنار عشوائية، ولا كشف للمواقع إلا في اللحظة التي تضمن فيها الرصاصة شل حركة العدو.

أشار إبراهيم من موقعه العلوي بحركة يد صامتة لأسفل: أربعة جنود في مرمى النيران المباشر، واثنان في المؤخرة.

توقف دافيد فجأة ورفع قبضته لأعلى آمراً جنوده بالثبات؛ شيء ما في سكون الوادي لم يكن مريحاً. لم يكن هناك طير واحد يطير فوق

الحافة، ولا أثر لحركة رمال طبيعية. نظر إلى يونا وهمس بصوت متقطع:

— المكان ضيق جداً.. ارجع خطوتين وامنحني زاوية رؤية للخلف.

قبل أن يكمل يونا تراجعه، انطلقت رصاصة واحدة مباغتة ودقيقة من موقع بيشوي، شقت سكون الجبل واخترقت كتف الجندي الذي كان يتقدم الرتل في المقدمة، فأسقطته أرضاً يصرخ من الألم.

— انبطحوا! كمين!

صرخ دافيد وهو يرمي بجسده خلف نتوء صخري بارز، بينما بدأ يونا وبقية الجنود بإطلاق رشقات عشوائية من الرصاص الآلي نحو المنحدرات العالية، لترتد المقذوفات عن الصوان وتملأ المكان بشرر ورائحة كبريت خانقة.

انزلق سيد بجسده بخفة النمر إلى زاوية جديدة داخل الشق، وسحب زناد بندقيته بهدوء تام. رصاصتان متتاليتان أسكتتا مصدر النيران الأقرب إليهم، بينما كان فتحي من شقه يرمي

قنبلة يدوية تدحرجت في مسار الحصى، لتنفجر على بعد أمتار من صخرة دافيد، وتغمر المكان بكتلة من التراب والشظايا.

عبر سحابة الغبار المتصاعدة، التقت عينا دافيد للحظة واحدة خاطفة بعيني مقاتل أسمر، وجهه حنطي جاف كطمي النيل، وعيناه ثابتتان لا أثر فيهما لذعر أو تردد، يمسك بسلاحه في وضعية قناص محترف.

تجمد الدم في عروق دافيد لتلك الثانية؛ لم يكن هؤلاء مقاتلين يمكن تشتيتهم بالنيران الكثيفة، بل رجال يعرفون كيف يحولون كل شبر من الصخر إلى متراس ومقبرة.

سحب دافيد يونا من كتفه بعنف إلى الوراء وهو يصرخ وسط دوي الرصاص:

تراجع إلى مدخل الفجوة! لا تبقوا في المنتصف.. إنهم يحاصروننا من الأعلى!

انسحب المظليون تحت غطاء كثيف من الدخان المسيل ونيران بنادقهم، تاركين وراءهم أثراً من الفوارغ النحاسية على الأسفلت وبقع دماء على الحصى، ليعود الصمت المشحون إلى

الممر بعد جولة أولى كشفت لكل طرف حجم وقوة الخصم الذي يواجهه.

أخرج سيد خزينة بندقيته بحركة سريعة، تفقد عدد الطلقات المتبقية بعين فاحصة، ثم أرجعها مكانها بصوت نقرة معدنية واثقة، وهو يهمس لبيشوي الزاحف نحوه:

دخلوا برجالهم للجبل يا بيشوي.. والجبل — صاحبنا إحنا مش صاحبهم.

صدى في الوادي

ممرات سيناء ـــ فجر 10 أكتوبر 1973

كان الصقيع يلف وادي الصوان برداء رمادي بارد قبيل طلوع الفجر، ولا صوت سوى تكسر قشور الجليد الخفيفة تحت الأقدام الحذرة.

في بطن الوادي الضيق، قاد دافيد روزنبرغ فصيلته للالتفاف حول النتوء الجبلي بهدف تطويق المربض الذي انطلقت منه نيران الأمس. كان يونا يتحرك خلفه مباشرة، لكن خطواته كانت تفتقر إلى ثباتها القديم؛ فقدان الرفاق في أول اشتباك كسر غروره، وعيناه كانتا تفتشان الشقوق الصخرية بارتياب محموم، وسبابته ترتعش فوق زناد بندقيته الـ «فال».

توقفت الدورية لثوانٍ عند صخرة بيضاء عريضة تشطر الطريق. التفت يونا إلى دافيد وهمس بصوت متهدج يخنقه التوتر:

دافيد.. لا يوجد غطاء هنا، الهواء ساكن ـــ بطريقة غير طبيعية.. دعنا نطلب دعماً مدفعياً أولاً، المكان يشبه القبر.

أشار دافيد بيده محاولاً تثبيته وإسكاته:

— اهدأ يا يونا.. خطوات قليلة ونصل للمنحدر الحاكم. نحن معاً منذ حيفا، لا تفقد صوابك الآن.

على مسافة خمسين متراً في شق مائل فوق المنحدر، كان سيد زكريا رابضاً بجوار إبراهيم كأنه منحوت من صخر الجرانيت ذاته؛ جسده متوارٍ خلف ستارة حجرية طبيعية، وفوهة بندقيته الآلية تستند إلى كيس رمل صغير لامتصاص الارتداد.

همس إبراهيم وهو يضبط عدسة الرؤية الليلية:

— الستة اللي تحت بيتحركوا في نسق طولي.. التاني فيهم باصص لفوق وشايل جهاز إرسال.

رد سيد بصوت خفيض لم يتجاوز شفتيه، ثابت وهادئ كجريان النيل في ليل الصعيد:

— استنى لما يعدي الصخرة البيضا.. لو ضربنا قبلها هيرتدوا ورا الساتر.

خطا يونا خطوته الأولى مجتازاً الصخرة البيضاء، خارجاً إلى بياض الضوء الشاحب.

وفي تلك الثانية تحديداً، انكسر صمت الوادي.

طلقة واحدة.

لم تكن رشقة عشوائية، بل رصاصة قناص حاسمة ومحكمة خرجت من فوهة بندقية سيد، شقت سكون الجبل واستقرت مباشرة في منتصف صدر يونا.

ارتد جسد يونا إلى الخلف بعنف كأن مطرقة فولاذية هوت عليه، وسقطت بندقيته فوق الحصى برنين معدني جاف. تهاوى على ركبتيه أولاً، ثم ارتطم ظهره بالصخر، وأصابعه تتخبط في الهواء باحثة عن شيء تستند إليه، والدماء الساخنة تندفع لتلطخ رمال الوادي.

يونا —!

صرخ دافيد صرخة جنونية مزقت سكون الجبل، وألقى بنفسه على الأرض زاحفاً تحت وابل رصاص التغطية الذي أطلقه بيشوي

وفتحي من جانبي الممر ليمنعا أي محاولة لسحب المصاب. تمزق مرفقا دافيد على الحجارة المسننة حتى وصل إليه، وجذبه بكل قوته خلف ساتر منخفض.

كان صدر يونا يعلو ويهبط بسرعة مخيفة، ورغوة دم داكنة تخرج من بين شفتيه وهو يحدق في السماء الشاحبة بعينين بدأ بريقهما ينطفئ. حاول رفع يده المرتجفة، فأمسك بياقة أفرول دافيد بضعف، وهمس بصوت متقطع يخنقه الدم:

— دافيد.. الأرض.. لا تريدنا يا دافيد.. إنهم.. إنهم لا يموتون..

— اسمعني يا يونا، انظر إليّ! لا تغمض عينيك!

ضغط دافيد بكلتا يديه فوق الجرح الغائر في صدر رفيقه محاولاً حبس النزيف المتدفق، والدماء الحارة تتسرب بغزارة من بين أصابعه لتختلط بحبات الرمل، ودموعه تسقط لأول مرة فوق جبين يونا البارد:

المروحية في طريقها إلينا.. ستعود إلى — حيفا، تماسك من أجلي!

ابتسم يونا ابتسامة باهتة انكسرت مع زفرة أخيرة؛ ارتخت أصابعه المتشبثة بياقة دافيد فجأة، وتدلت يده لتسقط ميتة فوق الأرض، بينما بقيت عيناه مفتوحتين تنظران إلى الفراغ.

سكن كل شيء حول دافيد. توقف دوي الرصاص في أذنيه، وتحول العالم إلى صمت مرير وجامد. رفع يديه المصبوغتين بدم رفيق طفولته وتدريباته، ونظر إلى الجثمان الممدد أمامه بذهول مروّع؛ هنا سقطت كل أوهام التفوق والغرور، وبات الموت حقيقة عارية لا مفر منها.

في الأعلى، سحب سيد أجزاء سلاحه للخلف بهدوء، وأخرج الفارغ النحاسي الساخن ودسه في جيبه، ثم نظر إلى إبراهيم وقال بصوت حازم وثابت:

غير موضعك يا إبراهيم فوراً.. الصدمة — هتخليهم يضربوا بكل غل، والمعركة الحقيقية هتبدأ دلوقتي.

صمود الصخور

ممرات سيناء ـــ ظهيرة 11 أكتوبر 1973

لم تتأخر طائرات «الفانتوم» الإسرائيلية كثيراً؛ جاءت في طلعات منخفضة تصب حممها على التلال المحيطة لتمهيد الطريق للمشاة، محولة واجهات الصوان إلى شظايا متطايرة، ومخلفة دخاناً كبريتياً خانقاً خيّم على أرجاء الممر لساعات.

كانت بقية فصيلة الصاعقة تتمركز في شقين صخريين متجاورين؛ الشق الرئيسي يضم الملازم قائد المفرزة وستة من الجنود، بينما يرابط سيد زكريا وبيشوي وإبراهيم وفتحي مع جنديين آخرين في تجويف صخري منخفض لا يكاد يتسع لجلوسهم منتصبي القامة.

كان الهواء راكداً وثقيلاً بحرارة الظهيرة، والشفاه مشققة من نفاد الماء. همس إبراهيم وهو يمسح العرق الممزوج بالتراب عن عينيه:

اللاسلكي ساكت خالص يا سيد.. الهوائي — ضربته الشظايا فوق، ومفيش أي إشارة راجعة من القيادة.

وقبل أن يرتد صدى صوته، شق الهواء صفير حاد ومفاجئ، لم يكن لطائرة، بل لدانة مدفعية ثقيلة عيار 155 ملم وُجّهت بدقة بالغة نحو مدخل الشق الصخري الرئيسي.

انفجار مروّع هز جدران الجبل كزلزال، وتطايرت كتل الصخر الضخمة كالريش في الهواء، وانفجرت معها ذخائر الشق الآخر. غامت الرؤية في سحابة سوداء خانقة ملأتها رائحة الكبريت واللحم المحترق، وتداعت الحجارة لتسد الفجوة تماماً.

— يا رجالة! حضرة الملازم!

صرخ فتحي وهو يندفع بجسده نحو الركام، لكن يد سيد القوية أمسكت بكتفه وجذبته للخلف بحزم وألم:

— متطلعش يا فتحي! القصف لسه شغال، والشق اتقفل خلاص.. اهدأ!

خف الغبار ببطء ليكشف عن مأساة صامتة؛ لم يعد للشق الرئيسي وجود، استشهد القائد وكل من كان معه في ثوانٍ معدودة تحت أطنان الصخر. لم يتبقَ في الموقع المعزول سوى سيد، إبراهيم، بيشوي، فتحي، ومقاتلين اثنين مصابين بشظايا بالغة في الأطراف.

جلس إبراهيم على الأرض مسنداً ظهره للصخر المرتعش، وعيناه مسمرتان في الرماد والدخان المتصاعد، ويداه ترتجفان وهي تقبض على بندقيته. اقترب منه سيد، جثا على ركبتيه أمامه، ووضع كفه الخشنة فوق كتفه وضغط عليها بقوة:

— وحد الله يا إبراهيم.. مفيش وقت للذهول. إحنا في قلب المعركة.

تنفس إبراهيم بصعوبة، ونظر في عيني سيد الثابتتين كطمي الجنوب، وتمتم بصوت متحشرج:

— إنا لله وإنا إليه راجعون.. مبقاش غيرنا يا سيد، والاتصال مقطوع تماماً عن الدنيا كلها.

رد بيشوي وهو يلقم بندقيته بخزينة جديدة ويتحقق من جراح المقاتلين المصابين:

— ومعانا اتنين مصابين مش هيقدروا يمشوا مسافات طويلة، والذخيرة لازم تتوزع بالطلقة.

أخرج سيد خزينته الأخيرة، تفقدها، ونظر نحو فوهة الشق الضيق حيث بدأت أصوات قذائف الهاون تدك أطراف الوادي، تمهيداً لزحف المظليين الإسرائيليين:

— هما مفكرين إن الضربة مسحت الموقع باللي فيه.. مش هنخليهم يلمحوا حركة. اللي يقرب يدخل مداكم، يترمى بنار موجهة طلقة بطلقة. الممر ده مش هيتفتح إلا على جثثنا.

تحامل الجنديان المصابان ورفعا سلاحيهما إلى جانب فتحي وبيشوي، بينما اتخذ سيد وإبراهيم موقعي الرماية عند فتحة الصخر، بانتظار الموجة الجديدة التي لن تكون مجرد اشتباك عابر، بل صراع بقاء حتى النفس الأخير.

ملحمة على حافة الصوان

ممرات سيناء ـــ عصر 11 أكتوبر 1973

كان الجبل يئنّ تحت وطأة قصف مدفعي متواصل، صرخات دانات الهاون والمدفعية عيار 155 ملم تخرق الآذان قبل أن ترتطم بجدران الممر، فتحول واجهات الصوان إلى شظايا متطايرة كأنها نصال خناجر مميتة. في الجيب الصخري المنخفض المعزول، كان الهواء خانقاً بحرارة الظهيرة وغبار البارود المشتعل، والشفاه مشققة بيضاء كالملح من نفاد قطرات الماء الأخيرة.

المقاتلان المصابان من فصيلة الملازم كانا قد لَفَظا أنفاسهما الأخيرة مع فورة القصف السابقة، ممددين في زاوية الشق المغطاة بالرمل، ولم يتبقَ في ذلك المنحنى الضيق سوى الأربعة: سيد، إبراهيم، فتحي، وبيشوي.

كانت ذخيرة الأسلحة الصغيرة شحيحة، والجميع يحسب كل طلقة بحساب العمر؛ سيد على مدخل الشق يراقب حركة المشاة المظليين

الإسرائيليين المنتشرين خلف التلال، وإبراهيم في زاوية صخرية مرتفعة نسبياً يعضّ على نواجذه ليلتقط أي رأس يحاول التقدم، بينما كان فتحي يراقب قاذف الآر بي جي بحذر متربصاً بأي تحرك للآليات.

وفجأة، شق صمت الترقب صوتٌ ثقيل، ارتجاجٌ معدني ارتعدت له رمال الأرض تحت بطونهم؛ زمجرة محرك ديزل هائل لمدرعة نصف مجنزرة إسرائيلية تتقدم ببطء تحت ساتر دخاني كثيف، يعلو برجها رشاش ثقيل عيار نصف بوصة يمطر واجهة الصخر بسيل متصل من الرصاص الحارق. كانت الشظايا ترتد على بعد سنتيمترات من رؤوسهم، مخلّفة رائحة صلب محترق ورذاذ حصى أعمى عيونهم.

أدرك الجميع الكارثة دون أن يتكلموا؛ المركبة تتقدم لتتمركز في نقطة حاكمة عند التواء الطريق، وإذا بلغت تلك الصخرة البارزة، ستصبح زاوية الشق الصخري مكشوفة بالكامل لمدفعها الرشاش، وحينها سيُباد الأربعة في

ثوانٍ دون أن يملكوا فرصة حتى للقتال المتلاحم.

كان فتحي في زاوية ميتة تمنعه من توجيه قاذف الآر بي جي دون أن يُكشف ظهره لرشاش الهضبة المقابلة، ولم تكن هناك زاوية رماية سانحة إلا من الشق الضيق المكشوف الذي يرقد فيه بيشوي.

تلاقت عينا بيشوي بعيني سيد. كانت نظرة خاطفة تختصر كل الذكريات؛ الليالي الباردة في المعسكر، واقتسام رغيف الخبز اليابس، وتلك الابتسامة الهادئة التي لم تفارق وجه بيشوي حتى في أحلك اللحظات. مد بيشوي يده تحت ياقة أفرولة المتربة، وأخرج صليبه الخشبي الصغير المعلق بخيط صوفي داكن، قبّله في خشوع تام، ثم أسقطه داخل صدره.

لم يكن في عينيه ذعر؛ كان فيهما يقين راسخ وسلام عجيب لا ينبت إلا في قلوب الفدائيين.

المدرعة دي لو لفت حولين الصخرة — البيضا، مش هيطلع مننا واحد حي،

قال بيشوي بصوت رخيم وهادئ كأنه يرتل في صلاة، وتناول قاذف الآر بي جي الملقى بجواره، وبدأ يزحف على مرفقيه نحو حافة الفجوة، غير مبالٍ بالحجارة المسننة التي شقت لحم ساعديه.

مدّ سيد يده كالمخلب، وأمسك بياقة أفرول بيشوي وجذبه بكل ما أوتي من عزم، ونبرته ترتجف برجاء وأمر عسكري مختلطين:

— بيشوي.. ارجع! الرشاش كاشف المدخل كله بريتم متواصل، الدخان مش هيحميك.. استنى لما تقرب شوية وننـاور سوا!

التفت بيشوي، ونزع يد سيد عن كتفه بقوة هادئة، ونظر في عيني ابن الأقصر بابتسامة ناصعة أضاءت وجهه المغطى بالسخام:

— مفيش وقت للمناورة يا سيد.. لو استنيت هتكون حصّلتكم. خلّي بالك من إبراهيم، وافتكرني يا صاحبي لما ترجعوا النيل.. وسّع السكة.

ألقى بيشوي نفسه إلى الأمام بحركة فدائية مباغتة. اندفع بنصف جسده الأعلى خارج

الساتر، متكئاً بركبته اليسرى على الحصى المكشوف في قلب الممر، تحت سماء تمطر رصاصاً متفجراً.

في ذلك الجزء من الثانية، سكنت أنفاس الوادي؛ رفع قاذف الآر بي جي فوق كتفه، وثبت خده على المقبض الخشبي، واستقرت عينه داخل فتحة التنشين موجهاً فوهة الصاروخ نحو نقطة الضعف القاتلة بين برج المدرعة ومحركها.

انطلقت القذيفة بلهب خلفي هائل أثار عاصفة من الرمال، وشقت الهواء بصفير يصم الآذان لتستقر مباشرة في قلب المحرك. دوى انفجار مروّع هز جدران الممر كزلزال؛ تحولت المدرعة إلى كتلة لهب برتقالية ضخمة تمزقت معها صفائح الفولاذ، وارتفعت ألسنة الدخان الأسود لتعانق قمة الجبل وتسد مسار الطريق نهائياً.

لكن ثمن الخلود كان حاضراً في اللحظة ذاتها.

قبل أن يسحب بيشوي جسده للداخل، التقط رشاش متمركز على التبة المقابلة موقعه

المكشوف؛ انهمرت رشقة نارية غادرة، رصاصات متفجرة ثقيلة اخترقت صدر بيشوي وجنبه بقوة أطاحت به إلى الوراء، ليرتطم بقاع الشق الصخري بجوار أقدام رفاقه، وسلاحه يتدحرج على الحصى برنين جاف وموحش.

بيشـــــوي —!

صرخ إبراهيم صرخة مفطورة خرجت من أعمق نقطة في روحه، وهو يرى أخاه يسقط مضرّجاً بدمائه.

انقضّ سيد عليه، ارتمى على ركبتيه وجذب رأس بيشوي ليضعه في حجره، بينما كان فتحي يحاول تمزيق ضمادات الميدان بأسنانه ويداه ترتجفان بذهول. وضع سيد كفيه فوق الجرح الغائر في صدر بيشوي في محاولة يائسة لوقف النزيف الحار المتدفق بغزارة، دماء قانية صبغت رمال سيناء وأفرول سيد حتى بلغت ذراعيه.

كان صدر بيشوي يعلو ويهبط بأنفاس متلاحقة ومتقطعة، ووجهه يبهت بسرعة كضوء شمعة في مهب الريح. سال خيط رفيع من الدم من

زاوية شفتيه، لكن عينيه استقرتا في عيني سيد بمحبة صافية لا تشوبها ذرة خوف.

حاول بيشوي الكلام، فارتجف فكه، ومد يده المرتجفة الملطخة بالبارود لتستقر فوق يد سيد المبللة بدمه، وهمس بصوت متهدج ومتقطع كحفيف الشجر:

— سيد.. الطريق.. اتقفل؟

انحنى سيد برأسه حتى لامست جبهته جبهة بيشوي، والدموع تحفر مسارها فوق السخام الأسود على خديه، وصوته يخرج مخنوقاً بقهر الرجال:

— اتقفل يا بيشوي.. والله اتقفل وولعت فيها.. الطريق مقفول بدمك يا بطل، ارتاح يا بيشوي.. ارتاح يا حبيب أخوك.

ابتسم بيشوي تلك الابتسامة الهادئة ذاتها، ابتسامة عذبة لمعت وسط جحيم الصخر والبارود، وتحركت شفتاه بضعف شديد:

— سلم لي على.. على النيل يا سيد..

انقطع صوته، وارتخت أصابعه المتشبثة بيد سيد فجأة لتسقط بثقل الموت فوق الحصى البارد، بينما بقيت عيناه مفتوحتين تنظران بثبات نحو السماء الصافية خلف سحب الدخان، وكأن روحه قد عبرت بسلام قبل أن يستقر جسده في سكون أبدي.

سكن كل شيء في الشق الصخري.

جلس سيد ورأس بيشوي في حجره، يغمض جفني رفيقه بكف مرتعشة، ثم طبع قبلة طويلة على جبينه البارد الملطخ بالتراب.

في الركن المقابل، انهار إبراهيم على ركبتيه واضعاً يديه فوق رأسه وهو ينتحب بنشيج مكتوم يمزق الصدر، بينما وقف فتحي مسمراً في مكانه كتمثال من حجر، يقبض على بندقيته حتى ابيضت مفاصل أصابعه، وعيناه تشتعلان بغضب كاسح.

نهض سيد زكريا ببطء، ولم ينكسر؛ كان جسده ينتصب كطود صواني نبت من عمق الجبل. نفض التراب عن أفروله المصبوغ بدم بيشوي، وتناول بندقية رفيقه الشهيد، وسحب خزن

الذخيرة من جعبته ووزعها في صمت بينه وبين إبراهيم وفتحي.

التفت سيد نحو فتحة الشق، وعيناه جمرتان من نار وعزم لا يلين، ونطق بنبرة حادة كالسيف، نبرة حسمت عهد الصمود حتى النفس الأخير:

— بيشوي دفع تمن الممر من دمه وروحه.. واللي هيفكر يلمس الصخرة دي، حسابه معانا بالرصاصة وبالروح.. جهز سلاحك يا فتحي، ارفع راسك يا إبراهيم. الممر ده مش هيتساب أبداً.

طوق النار

ممرات سيناء ـــ غروب 11 أكتوبر 1973

انسحبت خيوط الشمس الحمراء من قمم الجبال لتترك الوادي غارقاً في شفق بلون الدم المتيبس. الرائحة العالقة بين جدران الممر لم تعد رائحة بارود فحسب، بل اختلطت بها رائحة احتراق الكاوتشوك، واللحم، وحديد المدرعات التي سدت المعبر.

في التجويف الصخري الضيق، وضع سيد جثمان بيشوي في أعمق نقطة محتمية من الشظايا، وغطى وجهه بقطعة من شاش الميدان النظيف، ثم نثر فوق صدره طبقة خفيفة من تراب الجبل. لم يكن هناك وقت للدفن الكامل؛ أصوات تبادل الإشارات اللاسلكية العبرية في أسفل المنحدر كانت تقترب، مدفوعة بغضب الهزيمة بعد احتراق مدرعتهم ومقتل طاقمها.

جلس إبراهيم مسنداً ظهره للصخر البارد، يحضن بندقيته بكلتا يديه، وعيناه مسمرتان في الفراغ. كان جسده يرتجف خفيفاً ليس من

البرد، بل من وطأة الصدمة المتلاحقة؛ فصيلة كاملة قُتلت في الصباح، وبيشوي رفيق الدرب رحل قبل ساعة.

اقترب منه فتحي، جلس بجواره على ركبتيه، وأخرج من جيبه قطعتين يابستين من البسكويت العسكري وضعهما في يد إبراهيم، ونطق بصوت خشن حاول أن يجعله ثابتاً:

— كل دي يا هيما.. المعركة لسه مخلصتش، والجسم لما بيخوي التركيز بيروح.

رفع إبراهيم رأسه ببطء، ونظر إلى فتحي بعينين محتقنتين بالدموع:

— بيشوي كان بيقولي الصبح هشيل معاك أوضة النوم يا إبراهيم.. مكنش خايف، كان مبتسم وهو خارج للآر بي جي.. إزاي كل حاجة بتخلص في ثانية كده يا فتحي؟

وضع فتحي كفه الثقيلة على فخذ إبراهيم، وضغط عليها بحزم يشوبه حزن دفين:

— مبتروحش في ثانية.. بيشوي اشترى حياتنا وحياة الجيش كله بالثانية دي. الممر مقفول،

والدبابات اللي ورا مش عارفة تعدي تعدم زمايلنا على القناة. احنا مش بنموت هنا ببلاش يا إبراهيم.

في تلك الأثناء، كان سيد يقف عند شفة التجويف يراقب حركة الوادي من خلال منظار ميداني تشققت عدسته الخارجية. رأى مشاة العدو يعيدون تجميع صفوفهم في نسق تطويق نصف دائري؛ لم يعودوا يتقدمون في خطوط مستقيمة، بل انقسموا إلى ثلاث مجموعات صغيرة تزحف بين الصخور، تسبقهم قذائف هاون عيار 81 ملم تسقط بنظام إيقاعي منظم لتجريف كل شبر في الواجهة الجبلية.

التفت سيد نحو فتحي وإبراهيم، وأشار لهما بيده ليقتربا منه في عتمة الشق.

جمعوا الذخيرة كلها في النص —.

قال سيد بصوت خفيض وهادئ، هدوء بدا مناقضاً تماماً لجحيم النيران الذي يحيط بهم.

أفرغ الثلاثة جيوبهم؛ وضعوا الخزن على صخرة منبسطة:

خمس خزن كاملة للبندقية الآلية، وخزينة إضافية نصف ممتلئة، وقنبلتان يدويتان هجوميتان، وسبع طلقات فردية جمعها سيد من جعبة بيشوي. قاذف الآر بي جي أصبح ماسورة فارغة ميتة بعد إطلاق الصاروخ الأخير.

نظر فتحي إلى الكوم الصغير من الرصاص، ثم ابتسم بمرارة:

كده الحسبة واضحة.. كل طلقة براجل منهم. مفيش مجال للرمي العشوائي خالص. —

أومأ سيد برأسه، وقسم الذخيرة بالتساوي دون كلمة زائدة، ثم نظر في وجه فتحي ونطق بجدية قاطعة:

الليل هيدخل، والمظليين بتوعهم معاهم أجهزة رؤية ليلية كاشفة الوادي كله. هما فاكرين إننا قوة كبيرة متمركزة في المغارة عشان النيران اللي بيشوي ولع بيها المدرعة. أول ما الهاون يقف، هيبدأ الهجوم بالغاز والقنابل عشان يقتحموا المكان ده تحديداً. —

سأل إبراهيم وهو يمسح وجهه بكفه المرتجفة:

هنعمل إيه يا سيد؟ لو حاصرونا جوه الشق —
.هنا، قنبلة واحدة تخلص علينا كلنا

أشار سيد نحو نتوء صخري بارز يقع على بعد
ثلاثين متراً إلى الغرب، يشرف على ممر
:جانبي ضيق ينحدر نحو بطن سيناء الغربي

مش هنستنى لما يحاصرونا هنا. فتحي —
هيفضل معايا عند مدخل الشق ده.. هنفتح نار
متبادلة ونشغلهم إن القوة لسه هنا بالكامل.
...وأنت يا إبراهيم

توقف سيد، ونظر عميقاً في عيني إبراهيم،
وكانت تلك اللحظة بداية الفكرة التي كانت
تختمر في رأس ابن الأقصر، فكرة كسر
.الحصار وإنقاذ الشاهد الأخير

فداء في عتمة الصوان

ممرات سيناء — ليل 11 أكتوبر 1973

هبط ليل سيناء كئيباً وبارداً، صامتاً إلا من عواء ريح جافة تنحدر بين شقوق الجرانيت، حاملة معها نذر العاصفة ورماد المدرعة المحترقة في قاع الوادي. في باطن الشق الصخري الضيق، انكمش المقاتلون الثلاثة: سيد زكريا، فتحي، وإبراهيم. كانت أنفاسهم هي الصوت الوحيد في العتمة، أنفاسٌ مجهدة تتصاعد في الهواء المثلج كأنها خيوط بيضاء تتلاشى في قاع بئر مظلم.

على بعد خطوات قليلة منهم في زاوية الشق الأعمق، كان جثمان بيشوي يرقد مسجى تحت التراب وشاش الميدان، ساكناً في نومه الأبدي، بينما انتصبت خوذته الفولاذية فوق كومة من الحصى كشاهد قبر صامت.

أخرج فتحي من جيبه الصدري صورة قديمة، بالية الأطراف ومجعّدة بفعل العرق والتراب؛ صورة لأمه ترتدي شالها الأسود وتجلس أمام فرن الطين في قريته، وبجوارها طفلان

صغيران، إخوته الصغار الذين تركهم أمانة في رقبته قبل أن يُستدعى للجبهة. تلمس فتحي بأصابعه المتيبسة والملطخة بالسخام وجه أمه في الصورة، ثم قرّبها من عينيه في الظلام الشاحب، وأطبق جفنيه بقوة كأنه يستنشق رائحة الخبز الساخن وحطب الذرة ورائحة بيته البعيد.

التفت إبراهيم إليه، ولاحظ ارتعاشة شفتي رفيقه، فهمس بصوت مخنوق ومتحشرج:

— فتحي.. هترجع لهم والله. بكرة الصبح الطيران بتاعنا هيغطي الممر، وهننزل كلنا، وهروح معاك البلد، هقعد معاك على المصطبة وآكل من عيش أمك اللي بتحكي عنه ده.

ابتسم فتحي ابتسامة خافتة، ابتسامة انكسر فيها الحزن ليتحول إلى صفاء عجيب، ونظر إلى إبراهيم بعينين تلتمعان ببريق لم يره إبراهيم فيه من قبل:

— أمي دعت لي وأنا مسافر يا هيما.. قالت لي يا بني لا ترجع مكسور ولا ترجع سايب "

أمي عارفة إن .."وراك راجل يستنجد بيك الموت هنا أشرف من أي عيشة تانية.

طوى فتحي الصورة بعناية فائقة، ودسها داخل الجيب الأقرب إلى قلبه، ثم التفت نحو سيد الذي كان يجثو عند فتحة الشق، يراقب بعينين كعيني الصقر تحركات المظليين الإسرائيليين في قاع الوادي.

كانت أجهزة الرؤية الليلية المعادية ترسل إشاراتها عبر أشعة تحت حمراء خافتة ترصدها عيون سيد المدربة؛ قوة مظلات كاملة تتقدم في تشكيل كماشة، مجموعتان تحاصران الممر من الشرق والغرب، ومفرزة خاصة تتسلق المنحدر الصخري مباشرة نحو الفجوة التي يحتمون بها.

استدار سيد إليهم، ونبرته حاسمة كحد نصل بارد:

بدأوا التحرك.. معندهمش نية يستنوا الصبح. ناويين يطهروا الشق ده بقنابل الغاز والفوسفور قبل أول ضوء عشان يفتحوا الطريق للدبابات اللي متكدسة ورا الممر.

تحسس إبراهيم خزينته الأخيرة في بندقيته، واقترب من سيد:

هنثبت هنا يا سيد.. نضرب من الفتحة — ونرجع لجوه.

رد سيد وهو يهز رأسه نفياً:

لو فضلنا التلاتة في نفس التجويف ده، قنبلة — غاز واحدة هتعمينا وتخنقنا، ورشاش واحد على الباب هيصفينا وإحنا مزنوقين. لازم واحد يشغلهم من النتوء الصخري المكشوف بره، يفتح نار ويجر رجلهم لناحية المنحدر الهابط، والاتنين التانيين يتحركوا للشريان الصخري اللي فوق عشان نملك زاوية نضربهم منها من فوق روسهم.

ساد صمت ثقيل. كان الجميع يعلم ما يعنيه أن "النتوء المكشوف"يقف مقاتلٌ على ذلك ؛ إنه انتحار معلن، وقوفٌ عارٍ أمام رصاص كتيبة كاملة دون ساتر حقيقي، مهمته الوحيدة أن يشتري بدقائق حياته نجاة رفيقيه.

وقبل أن ينطق سيد بحرف، تحرك فتحي بحركة خاطفة وسحب رشاش «الديكتاريوف»

المتوسط الذي كان بحوزتهم، وتناول الخزائن الدائرية المتبقية، وسحب قنبلتين يدويتين وربطهما في حزامه.

أدرك سيد ما ينوي فتحي فعله، فهجم عليه وأمسك بذراعه بكلتا يديه، وعيناه تشتعلان بغضب وألم:

— فتحي! سيب السلاح ده مكانه.. مش هتقف بره لوحدك! مش هسيب أخ تاني يموت قدام عيني وأنا واقف أتفرج!

نظر فتحي في عيني سيد، ولم تكن نظرته نظرة جندي يتلقى أمراً، بل كانت نظرة أخ يودع أخاه الأكبر، وثبتت يده القوية فوق يد سيد ونزعها بهدوء حزين لكنه أصلب من كل صخور سيناء:

— اسمعني يا سيد.. اسمعني يا ابن الأقصر. أنت اللي هتعرف تخرج بإبراهيم، وأنت اللي هتعرف توجعهم لو وقفت فوق التبة العالية.. أنا لو طلعت فوق مش هقدر أجري، الشظية اللي في رجلي من العصر مخلية حركتي تقيلة وهعطلكم.. لكن هنا، على الصخرة دي،

الرشاش ده في إيدي هيخليهم يحسبوا إن فيه فصيلة كاملة مستنياهم.

— لأ يا فتحي! لأ!

انفجر إبراهيم باكياً وهو يمسك بكتف فتحي، دموعه تسيل بغزارة على وجهه المترب:

— نموت هنا سوا يا فتحي، مش هنسيبك.. متسيبنيش يا أخويا!

ضم فتحي رأس إبراهيم إلى صدره بقوة، وقبّل جبينه قبلة طويلة سمع فيها إبراهيم دقات قلب رفيقه تدق في صدره كطبول الحرب، ثم همس في أذنه بنبرة قطعت نياط قلبه:

— عيش يا إبراهيم.. عيش واتجوز نعمة، وسمي أول ولد على اسمي.. واوعى تنسى تحكي له عن بيشوي وعن الممر.. اوعى تنسى يا هيما.

التفت فتحي نحو سيد، ومد يده وتحسس كتف سيد، والدموع تترقرق في عينيه وهو يبتسم ابتسامة شجاعة مبكية:

أمانة في رقبتك يا سيد.. لو رجعت، روح — لأمي في البلد.. قول لها فتحي وشّه مكنش في الأرض وهو بيموت.. قول لها فتحي مات راجل وبيضحك.. وادفنوني جنب بيشوي لو فضلت لي جثة.

قبل أن يستطيع سيد أو إبراهيم منعه، اندفع فتحي كالبرق خارج الشق الصخري، وانزلق بجسده ليرتقي صخرة النتوء الحاكمة المكشوفة في مواجهة الوادي والريح.

وفجأة، شق صمت الليل صوت زئير هائل.

لم يكن فتحي يطلق رصاصاً فحسب؛ كان يصرخ بأعلى حنجرته صرخة مزقت سكون الجبال، صرخة هزت أركان الوادي ورددتها قمم سيناء:

— اللـــــــه أكبـــــــر! تحيا مصـــــــر!

انفجر رشاش فتحي بسيل من النيران المتواصلة، مقذوفات خطاطة حمراء شقت عتمة الليل لتنهال على طليعة المظليين الإسرائيليين الذين كانوا يتسللون بين الصخور. سقط أول ثلاثة جنود من الطليعة في ثوانٍ

معدودة، وتصايح جنود العدو باللغة العبرية في ذعر وذهول، وظن قادتهم أنهم وقعوا في كمين لفرقة كاملة نصبت لهم فخاً على الحافة.

ارجعوا! انسحبوا للخلف! هناك مدفع — رشاش ثقيل في الأعلى!

تعالت الصرخات المعادية وسط الوادي، وتراجعت القوة التي كانت تحاول الالتفاف حول المغارة، ووجهت كل أسلحتها، ورشاشات مدرعاتها، وقنابل هاونها نحو نقطة واحدة: الصخرة التي يقف عليها فتحي.

انهمر على فتحي جحيمٌ لا يوصف؛ طوفان من الرصاص المتفجر والخطاط مزق الهواء حوله، وفتت الصوان تحت قدميه. شظايا الحجر كانت تتطاير لتجرح وجهه ورقبته، لكنه لم يتراجع سنتيمتر واحد؛ كان واقفاً منتصباً بنصف جسده، يضغط على زناد الرشاش ويهدر بالنار، مشترياً كل ثانية بروحة ليعطي سيد وإبراهيم الفرصة للصعود نحو الممر العلوي.

في الأسفل، جذب سيد إبراهيم الذي كان يتخبط ويبكي بجنون، وسحبه بقوة وقسوة فرضتها ضرورة المعركة نحو الشق الخلفي المرتفع، بينما كانت عينا سيد معلقتين بفتحي فوق الصخرة المكشوفة، ودموع القهر والغضب تحفر مجراها الساخن فوق خديه.

أصابت أول رصاصة متفجرة كتف فتحي الأيسر؛ ارتد جسده إلى الخلف، لكنه صك على أسنانه بقوة حتى تفجرت الدماء من لثته، وأعاد تثبيت الرشاش بساعده الأيمن وواصل إطلاق النار دون توقف.

ثم جاءت الرصاصة الثانية في خاصرته، وتلتها شظية قنبلة مزقت فخذه.

ترنح فتحي، وسقط على ركبتيه فوق الصخر، وسلاحه كاد يفلت منه، لكنه نظر نحو الشق الخلفي ورأى ظل سيد وإبراهيم وهما يبلغان الموضع الحاكم بأمان. ابتسم فتحي وسط سيل الدماء الذي تدفق من صدره وفمه، ابتسامة نصر لا يدركها إلا من باع نفسه لله وللوطن.

نفدت طلقات الرشاش، وصمتت سبطانته المحترقة.

اقترب جنود المظلات الإسرائيليون بحذر مميت وهم يطلقون طلقات منفردة، يتقدمهم ضابط يصيح لرجاله بالاقتراب وأسر المقاتل الذي عطلهم بمفرده.

رأى فتحي ظلالهم تقترب، وتلمس بيده المبللة بدمائه القنبلتين اليدويتين المعلقتين في حزامه. نزع فتيل الأمان للأولى بأسنانه، ثم نزع صاعق الثانية بإصبعه المرتجف، وضم القنبلتين بكلتا يديه إلى صدره الممزق، وألقى برأسه إلى الوراء نحو السماء المرصعة بالنجوم، وتمتم بصوت خافت ممتلئ بالسلام واليقين:

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً — رسول الله.. مع السلامة يا أمي.. مع السلامة يا سيد.

وصل أول جنديين إسرائيليين إلى حافة الصخرة وبنادقهم مصوبة نحو رأسه، يصرخون فيه بالاستسلام.

فتح فتحي عينيه، ونظر إليهم بابتسامة سخرية وازدراء أخير، وفك أصابعه عن القنابل.

دوى انفجار مروّع فوق النتوء الصخري، ومزقت كتلة اللهب عتمة الليل، لتبتلع فتحي ومن حاولوا الاقتراب منه في وهج خاطف هز أرجاء الوادي، وتناثرت بقايا الصخر والحديد في كل اتجاه.

في الممر العلوي، هوى إبراهيم على ركبتيه، وغطى وجهه بالتراب وهو ينتحب بنشيج هستيري يمزق نياط القلب:

— فتحـــــي.. يا فتحـــــي.. راح فتحي يا سيد.. راحوا كلهم!

أما سيد زكريا، فوقف في مكانه في العتمة مشدود القامة، يده تقبض على بندقيته حتى كادت أصابعه تسحق الحديد، وصدره يعلو ويهبط في لهاث غاضب كأنه أسد حوصر في عرينه. نظر إلى النقطة المحترقة في الأسفل، ثم رفع يده العسكرية الملطخة بالبارود والدم إلى جبينه في تحية عسكرية وداعاً لرفيقه،

ونطق بصوت خشن، هادئ بشكل مخيف، نبرة رجل قطع عهداً مع الموت:

— في رحاب الله يا فتحي.. ورب الكعبة ما هيدخلوا الممر ده ولا هيطلعوا من الوادي ده إلا على دمائهم.. دورنا بدأ يا إبراهيم. جهز نفسك.

أمر الانسحاب

ممرات سيناء ـــ الساعات الأولى قبل فجر 12 أكتوبر 1973

سكن الوادي سكوناً كالحاً بعد دوي انفجار فتحي، وهبط غبار البارود المحترق كالرماد البارد فوق الصخور المسننة، قاطعاً كل أنفاس الحياة في الممر. في الأسفل، كانت ألسنة اللهب المتبقية من المدرعة تخبو ببطء، وتراجعت عناصر المظليين الإسرائيليين مؤقتاً إلى عمق السفح لتعيد تجميع صفوفها بعد الخسائر المباغتة، لكن نداءات أجهزة اللاسلكي العبرية، وطقطقة تلقيم الأسلحة، وأصوات الجنازير الثقيلة في قاع الممر كانت تؤكد أن اقتحاماً شاملاً يجري الترتيب له مع أول خيط ضوء.

في الشق الصخري المرتفع، جلس إبراهيم على الأرض الباردة مسنداً ظهره لكتلة من الصوان، يلهث في عتمة المغارة بأنفاس متقطعة ومجهدة، وأصابعه متشنجة فوق مقبض بندقيته

الآلية كأنها ملتحمة بالحديد، وعيناه مسمرتان في الفراغ بذهول قاهر.

وقف سيد زكريا أمامه، يمسح العرق والغبار عن جبهته بظهر كفه الخشنة. تفقد مخزن بندقيته بنظرة سريعة، ثم جثا على ركبة واحدة أمام إبراهيم، ونظر في عينيه مباشرة بنبرة عسكرية حادة وجافة، تخلو من أي تردد:

اسمعني كويس يا إبراهيم.. مفيش وقت — نضيعه. اللاسلكي اتدمر في القصف الأولاني، والقيادة من ساعتها متعرفش إحنا فين ولا إيه اللي بيحصل في الممر. الطريق لسه مقفول بالمدرعة المحروقة، بس لو الفجر طلع والكتيبة دي عدت من هنا، هتقطع خط الإمداد الوحيد في ضهر الجيش التالت بالكامل وهتفتح ثغرة في الجبهة كلها.

بلع إبراهيم ريقه بصعوبة، وحاول تعديل جلسته، وصوته يخرج مبحوحاً ومخنوقاً من هول الليلة:

هنعمل إيه يا سيد؟ الذخيرة اللي باقية — متمشيش معركة، والكتيبة كلها تحت بتجهز لاقتحام شامل من كل المداخل.

رفع سيد يده، وأشار بسبابته بحزم نحو ممر صخري ضيق ينحدر خلف التبة باتجاه الغرب:

الممر الغربي ده أرض ميتة، نازل في بطن — الجبل بعيد تماماً عن زوايا رصدهم وأجهزة الرؤية الليلية. هتتحرك فيه فوراً وتزحف في قاعه. مسافة سبعة كيلو وهتطلع على خطوطنا المتقدمة أو دوريات الاستطلاع بتاعة الجيش التالت.. توصل هناك، تبلغهم بإحداثيات الممر ده بالمللي، وتطلب ضربة طيران مركزة أو مدفعية ثقيلة تدك بطن الوادي ده بكل الآليات اللي متكدسة فيه قبل ما تتحرك شرق.

انتفض إبراهيم بجسده، ونظر إلى سيد بعينين جاحظتين من الصدمة والرفض:

وأسيبك هنا لوحدك؟! ننزل سوا يا سيد، — التحرك سوا أضمن.. نقدر نعدي السبعة كيلو إحنا الاتنين قبل الصبح!

رد سيد بصرامة قطعت كلامه، وصوته يرتفع بهدوء مخيف وحاسم:

— لو اتحركنا إحنا الاتنين، النيران هتقف فوق المرتفع.. أول ما الضرب يقف، المظليين هيتأكدوا إن الموقع فضي وهيتقدموا في ضهرنا فوراً، هيجيبونا بالرشاشات في أول كيلو أرض مفتوحة قبل ما نلمح خطوطنا. لازم طلقات تفضل تطلع من فوق، لازم نيران تفضل تلسعهم عشان يتثبتوا في أماكنهم ويفتكروا إن الفصيلة لسه ماسكة التبة بالكامل.. ده اللي هيأمن لك المسافة والوقت عشان تخرج بره مداهم وتوصل بالبلاغ.

حاول إبراهيم التمسك بموقفه وهو يضغط على ذراع سيد برجاء جندي لرفيقه:

— بس يا سيد، الكتيبة كاملة تحت.. مش هتقدر توقفهم لوحدك لو النهار شق!

انتصب سيد واقفاً كعمود صوان، وضغط بقبضته على كتف إبراهيم بأمر عسكري قاطع لا يحتمل أي جدال:

ده أمر عسكري يا عسكري إبراهيم.. مفيش — نقاش فيه! الحركة فوراً قبل ما الفجر يفتح الدنيا. كل دقيقة بتضيعها هنا في الكلام بتضيع فرصة إن الطيران يلحق الممر. شيل سلاحك واتحرك.

ساد الصمت لثوانٍ معدودة بين الاثنين، صمتٌ ثقيل لم يقطعه إلا صوت الريح الجافة العاوية بين الشقوق. أدرك إبراهيم من نظرة سيد الثابتة أن الأمر قد قُضي، وأن الوقوف أمامه مستحيل. نهض ببطء، شد حزام بندقيته فوق كتفه، ونظر في عيني سيد بثقل وصمت يختصران كل شيء، ثم قبض على كف سيد وضغط عليها بقوة:

هجيب الدعم وراجع لك يا سيد.. مش — هتأخر.

أومأ سيد برأسه إيماءة سريعة وجافة، دون أي استرسال عاطفي:

عينك على الأرض، وازحف تحت الساتر — الصخري ومتقفش على حيلك إلا لما تعدي التبة التانية ورا السلك. توكل على الله.

استدار إبراهيم دون أن يلتفت، وانزلق بجسده في عتمة الشق الغربي، مبتلعاً خطاه بين انحناءات الصخر الهابطة نحو قاع الصحراء.

بقي سيد زكريا خليل بمفرده فوق قمة المرتفع المعزول.

تحرك بخطوات سريعة ومحسوبة كذئب يعرف تضاريس عرينه؛ جمع ما تبقى من خزن الذخيرة الصالحة لبنادق الشهداء، ووزعها بعناية في ثلاثة مواضع رماية متباعدة على طول الحافة الصخرية المطلة على الوادي، ليضمن سهولة المناورة بينها وسرعة الإيهام بأن التبة ما زالت تغلي بالنيران من مواقع متعددة.

جلس خلف الساتر الحجري الأوسط، وأفرغ خزنته، ثم لقّم بندقيته الآلية بخزينة ممتلئة وسحب الأجزاء بحركة جافة وقوية أصدرت رنيناً معدنياً شق سكون الفجر البارد.

أسند سبطانة سلاحه فوق الصخر، وعيناه تراقب بحذر شديد أول خيوط الضوء الشاحبة التي بدأت تنكشف في الأفق، بانتظار حركة

الرؤوس الأولى من جنود الكتيبة في بطن الممر.

رحلة الزحف والسقوط

المدقات الجبلية الغربية ـــ فجر 12) (أكتوبر 1973

كان الهواء في قاع الممر الغربي أشد برودة، هابطاً بين جدارين متلاصقين من الصخر الأملس كأنه مجرى سيل جاف ابتلعته الصحراء منذ آلاف السنين. زحف إبراهيم على بطنه، متبعاً الانحناءات الهابطة، وجسده يحتك بالحصى الحاد في صمت مطبق، وحزام بندقيته الآلية معقود بإحكام حول كتفه لئلا يصدر الحديد صوتاً يشي بمساره.

مع انقشاع السواد الحالك وبداية شق الفجر الأزرق في السماء، شق الصمت من خلفه دويٌ هائل اهتزت له بطون الوديان؛ صلية رصاص كثيفة من بندقية آلية أعقبتها فرقعة قنابل يدوية متتالية فوق المرتفع الحاكم.

تسمر إبراهيم في مكانه ثوانٍ، وتراجعت أنفاسه في صدره؛ كانت تلك نيران سيد.

أدرك فوراً أن الاشتباك قد اشتعل، وأن سيد بدأ في مناورته الانفرادية لضرب طليعة الكتيبة ولفت كل الأنظار نحوه. عضّ إبراهيم على نواجذه حتى سال الدم في فمه، وواصل الزحف بأقصى طاقة في عضلاته المنهكة، تلاحقه كل دقيقة بتضيعها هنا " :وصية سيد كالسوط بتضيع فرصة إن الطيران يلحق الممر".

قطع إبراهيم ما يقارب الكيلومترين في باطن الشق المتعرج، حتى بدأ الجبل ينفرج تدريجياً ليفضي إلى مساحة منبسطة من التلال الرملية المنخفضة؛ الأرض الميتة التي تفصل الموقع المحاصر عن محاور انتشار القوات المتقدمة التابعة للجيش الثالث.

وفجأة، شق الأفق صفير مدفعية معادٍ بعيد المدى، قصف عشوائي كانت توجهه مدفعية الهاوتزر عيار 155 ملم لقطع أي خطوط إمداد أو إخلاء خلف الممرات.

سقطت أول دانة على بعد مائة متر، لتلقي بكتلة هائلة من الرمل واللهب في الفضاء، تلتها دانة ثانية سقطت أقرب بكثير، في الحافة الصخرية التي كان إبراهيم يزحف بمحاذاتها.

عصف الانفجار كان صاعقاً؛ طار جسد إبراهيم في الهواء كقشة واصطدم بحافة رملية قاسية، وسقط على جانبه الأيسر فاقداً القدرة على التقاط أنفاسه. ملأ أذنيه طنين حاد ومستمر شل كل حواسه، وغامت عيناه بسحابة سوداء من الدخان والكبريت.

حاول النهوض، فصرخ صرخة مكتومة خنقتها الرمال؛ شظية معدنية ساخنة كانت قد انغرست بعمق في أعلى فخذه الأيمن، وتفجر الدم قانياً ليتشربه تراب سيناء الجاف.

تحامل على كوعيه، وأسند ذقنه إلى الأرض وهو يلهث بضعف متزايد. أغمض عينيه وفتحها محاولاً طرد الدوار الذي يطبق على رأسه، وبدأ يجر ساقه المصابة ويزحف على مرفقيه وصدره فوق الرمل المشتعل بضوء الصباح الأول، خطوة تلو الأخرى، يترك وراءه خطاً رفيعاً من الدماء الداكنة.

— لازم أبلغ عن الممر يا سيد.. الممر..

تمتم إبراهيم بصوت متقطع لا يكاد يُسمع، يحاول التشبث بوعيه الهارب.

تلاشت المسافات في وعيه، وبدأت الرؤية تضيق وتغرق في ضباب رمادي. ثقلت أطرافه تدريجياً، وبدأ النبض في صدغه يتباطأ مع تسرب الدماء وانخفاض ضغط دمه، حتى انهارت قواه تماماً وسقط وجهه فوق رمال التبة المنبسطة، وبندقيته مفلتة من بين أصابعه التي استرخت دون إرادة.

وقبل أن يبتلعه الظلام الدامس وتغلق جفونه في غيبوبة تامة، التقطت أذناه الثقيلتان صوت زمجرة محرك سيارة جيب عسكرية تتقدم عبر الوادي الرملي، وأصوات صيحات خشنة ومألوفة تهتف باللهجة المصرية:

في مصاب هنا يا شاويش! حد من الصاعقة — مرمي قدام! هاتوا النقالة والضمادات بسرعة!

غاب إبراهيم عن الوعي تماماً، بينما كانت أيدي رجال الاستطلاع المصريين ترفعه برفق من فوق التراب، وتسرع بنقله نحو نقطة الإخلاء الطبي خلف رأس الكوبري.

ملحمة أسد سيناء

ممرات سيناء الحاكمة ـــ ضحى 12 أكتوبر 1973

كان الصباح قد استوى فوق المرتفع، والشمس تلقي بلهيبها الشاحب على صخور الصوان المتشققة. جلس سيد زكريا خليل في التجويف الصخري الأعمق، يمسح حبات العرق البارد الممزوج بالغبار عن جبهته، ويأخذ نفساً عميقاً ومنتظماً يعيد به ضبط نبضات قلبه. غياب إبراهيم في بطن الممر الغربي ترك فراغاً موحشاً في المكان، لكنه أطلق في صدر ابن الأقصر يقيناً حاسماً: لم يعد هناك ما يخشى خسارته؛ المعركة الآن معركة وقت، وكل دقيقة يقف فيها صامداً هي طوق نجاة لرفيقه، وسدٌّ منيع يحمي ظهر الجيش.

جمع سيد ما تبقى من عتاد على صخرة مستوية: ثلاث بنادق آلية كلاشينكوف (بندقيته وبندقيتي بيشوي وفتحي)، ست خزن ذخيرة لم تكن كلها مكتملة، وقنبلتين يدويتين، وسونكي البندقية الحاد المغروس في جرابه.

بدأ في تنفيذ خطته التكتيكية بدقة هادئة؛ قسّم القمة إلى ثلاثة مرابض رماية متباعدة تربطها ممرات زحف طبيعية بين الشقوق:

* المربض الأول (أقصى اليمين): يشرف على المنحنى الإجباري الذي تلتف حوله الآليات.

* المربض الثاني (المنتصف): محمي بصخرة صوانية شطرية، يملك زاوية رماية واسعة على بطن الوادي.

* المربض الثالث (أقصى اليسار): نتوء بارز يتيح رمي القنابل والتضليل الصوتي لتشتيت خطوط نيران العدو.

وضع في كل مربض بندقية ملقمة، ورتب الخزن بجوارها بعناية، وتأكد من أن مسارات الانتقال خالية من الحجارة المرتفعة كي يزحف كالشبح دون أن يكشف ظله لرماة العدو.

في قاع الوادي، كان المشهد يبدو مختلفاً.

وقف "دافيد"، الشاب النحيل ذو الملامح الحادة، والأصابع الدقيقة التي لطالما داعبت مفاتيح

البيانو في معاهد الموسيقى قبل أن يُساق إلى سلاح المظلات، يراقب قمة الممر عبر منظاره الميداني. كان دافيد يحمل حساسية الفنان حتى في الحرب؛ يستمع إلى إيقاع الميدان كما يستمع إلى هارموني معقد، والصمت المطبق في الأعلى لم يكن يريحه، بل كان يبدو له كنوتة ناقصة تسبق انفجار اللحن.

أشار دافيد لقائد طليعة المشاة بيده بحركة محسوبة، دون صياح:

" — الهدوء طويل أكثر من اللازم.. تحركوا في نسق انتشاري عريض، تمشيط حذر وتغطية متبادلة، الرشاشات الثقيلة تؤمن زوايا الصعود."

تقدمت طليعة مظلات إسرائيلية مدربة، تسعة جنود يتقدمون بخطوات تكتيكية متقاربة تحت غطاء نيران رشاشات المدرعات التي كانت تحرث واجهة الجبل بالحمم لمنع أي محاولة رصد.

في المربض الأوسط، حبس سيد أنفاسه. ترك الزاوية "الطليعة تبتلع الطعم وتدخل في

؛ منطقة صخرية مكشوفة تنعدم فيها "الميتة
.السواتر تماماً على بعد مائة وخمسين متراً

ثبت سيد خدّه على خشب البندقية، وتنفس زفرة
:هادئة، وضغط الزناد في رماية منتقاة

«!طَق.. طَق.. طَق»

سقط الجندي الأول برصاصة نافذة في الصدر، وقبل أن يدرك زملاؤه مصدرها، استقرت الرصاصة الثانية في رقبة الثاني. ارتمت الطليعة على الأرض وسط صرخات باللغة العبرية، وانهمر رصاص المدرعات في قاع الوادي على المربض الأوسط يحيل صخوره
.إلى غبار متطاير

.لكن سيد لم يكن هناك

كان قد انزلق على بطنه كالسهم نحو المربض الأيمن، التقط البندقية الثانية، وفتح صلية نصف دائرية حاصدة على مجموعة الدعم التي حاولت الالتفاف لنجدة المصابين، فأسقط اثنين آخرين. ثم زحف نحو المربض الأيسر، وألقى قنبلة يدوية تدحرجت في قاع الشق لتنفجر وسط

القوة المتراجعة محدثة دوياً هائلاً ودماراً أربك تشكيلهم بالكامل.

في الأسفل، ارتعشت أصابع دافيد وهو يستمع إلى استغاثات رجاله عبر اللاسلكي:

نيران متقاطعة من ثلاث جهات! إنهم " — يملكون مواقع حصينة تغطي المنحدر بالكامل!"

صاح دافيد وهو يوجه نيران الهاون:

لا تتراجعوا! ركزوا قذائف الهاون على " — الخط المرتفع، اقتحموا الشقوق واقتربوا منهم!"

انهمرت دانات الهاون بعنف، وشظايا الصوان تتطاير في كل اتجاه. واصل سيد المناورة بالرصاص لساعات طويلة أثقلت حرارة النهار؛ يضرب من زاوية، يزحف ليضرب من أخرى، ويوهم كتيبة كاملة بأنها تقاتل نسقاً عسكرياً منيعاً، مكبداً إياهم خسائر متلاحقة عطلت تقدمهم تماماً.

لكن الحساب العسكري للذخيرة كان يقترب من نهايته الحتمية.

أثناء محاولة دافيد تنظيم هجوم كاسح، تسللت مفرزة خاصة من أربعة مظليين عبر شق صخري ميت غير مكشوف، وبلغوا مطلع المغارة العلوية دون نيران تمهيدية لتفادي لفت الانتباه.

في تلك اللحظة بالذات، أطلق سيد طلقاته الأخيرة من البندقية الثالثة.. فصدرت طرقعة الإبرة الجافة على حجرة فارغة.

نفدت الذخيرة بالكامل. البنادق الثلاث صارت قطاعاً من الخشب والحديد الميت.

لم يكن هناك وقت للتفكير ولا للتردد؛ ظهر المظلي الإسرائيلي الأول على حافة الصخرة على بعد أمتار قليلة، رافعاً مدفعه الرشاش محاولاً مسح التجويف "العوزي".

اندفع سيد زكريا ككتلة من اللهب؛ لم يتراجع، بل انقض كالوحش الكاسر في التحام جسدي مباغت. بضربة صاعقة بساعده الأيمن أطاح بفوهة سلاح الجندي إلى الأعلى فانطلقت صلية الرصاص في الفراغ، وبحركة خاطفة هوى بقبضته الحديدية على حنجرة الخصم ليسحقه

تحت ثقله، ثم نزع السونكي من غمده وغرسه بحسم في صدره قبل أن يطلق صرخة استغاثة.

استدار الجندي الثاني مذهولاً من سرعة سقوط زميله، محاولاً توجيه سلاحه، لكن سيد هجم عليه كالعاصفة؛ أطبق كفيه على رقبة الجندي وسلاحه، وضربه بجبينه ضربة عنيفة هشمت عظام وجهه، ثم التوى به في حركة صاعقة ملقياً إياه من حافة النتوء الصخري ليهوي في قاع الشق جثة هامدة.

اندفع المظليان الثالث والرابع معاً في عتمة الشق، يشهران خناجرهما بعد أن ضاقت المساحة عن استخدام البنادق.

أصابت طعنة غادرة كتف سيد الأيسر، فشقت اللحم وتفجر الدم حاراً يبلل صدره، لكن الألم لم يزده إلا شراسة؛ زمجر ابن الأقصر زمجرة رجت جدران الصخر، وأمسك بمعصم حامل الخنجر ولوى ذراعه حتى سُمع صوت طقطقة المفصل وهو ينكسر، وجذبه نحوه ليجعله درعاً بشرياً في وجه الرابع، ثم هوى بالسونكي في حركة ارتدادية قاتلة أنهت مقاومتهما معاً في ثوانٍ من الصراع الدموي العنيف.

وقف سيد وسط الجثث الأربع في الشق الضيق، يلهث بأنفاس حارقة وجسده يقطر دماً وعرقاً.

جثا على ركبتيه فوراً، وبأصابع سريعة بدأ يجرد القتلى من عتادهم؛ انتزع جعب ذخيرة بنادقهم، وأخذ مخازن رصاص ممتلئة، ، وثلاث "عوزي"ومدفعين رشاشين من طراز قنابل يدوية إسرائيلية الصنع.

عادت الروح إلى قبضته، وامتلأت شرايينه بالعزم من جديد، وعاد إلى مرابضه متوارياً خلف الصخر.

في الأسفل، كان دافيد يترقب بحذر، وظن أن المفرزة التي صعدت قد أنهت المعركة بعد توقف إطلاق النار لدقائق واختفاء أصوات الصليات. رفع يده آمراً بقية القوة بالصعود المكشوف لتأمين القمة:

"الموقع سقط.. تقدموا لتطهير الممر" —.

وعندما بدأت أرتال المظليين في الصعود المكشوف مطمئنين إلى نهاية المقاومة، لم يكن

يعلمون أن الموت ما زال رابضاً فوق القمة خلف الحجارة الصامتة.

من وراء الساتر الصخري المرتفع، انطلقت نيران الرشاشين بغزارة مرعبة؛ صليات متصلة من أسلحتهم وذخيرتهم التي غنمها سيد بيديه، تنهال كالصاعقة فوق رؤوس القوات الصاعدة دون أن يتمكن أحد من رصد جسده أو معرفة ما يجري خلف الصخور. سقط العديد في قاع المنحدر بين قتيل وجريح، واندلعت الفوضى الشاملة في صفوف القوة المهاجمة التي تراجعت في ذعر وارتباك، بينما قنابل سيد تنفجر بينهم بدقة محسوبة حوّلت مدخل الممر إلى جحيم مستعر.

وقف دافيد متسمراً في مكانه في الأسفل خلف درع الآلية، تساقطت ثقته وتبددت برودة أعصابه بالكامل؛ كانت يداه ترتجفان بذهول وعجز وهو يرى جنوده يتراجعون هاربين من جحيم النيران المتجددة.

نظر دافيد إلى القمة الصامتة التي لا يظهر منها سوى وميض الرصاص والدخان، مدركاً أن الموقع لم يسقط، وأن كتيبته بأسرها أصبحت

عاجزة ومقيدة بالكامل أمام قوة مجهولة
وشرسة ترفض أن تموت، وتبتلع كل من
يحاول الاقتراب من الممر.

الوقفة الأخيرة

ممرات سيناء الحاكمة ـــ ظهيرة 12 أكتوبر 1973

اشتد لهيب الظهيرة فوق المرتفع حتى غدت حواف الصوان كأنها ألسنة من نار تحرق باطن الهواء. رقد الوادي تحت سحابة غليظة من الغبار الكبريتي، واختلطت رائحة الوقود المحترق في قاع المضيق بروائح البارود العتيق والدماء المتخثرة.

في التجويف الصخري المتقدم، جلس سيد زكريا خليل يتفقد ما تبقى لديه من ذخيرة.

كان جسده يئن تحت وطأة الجراح؛ شظايا قذائف الهاون قطعت لحم فخذه الأيسر وكتفه، والدم جف واختلط بالغبار والرمال الناعمة فشكل درعاً صلداً فوق جلده المحترق بالشمس. شفتان يابستان تشققتا حتى سال منهما الدم، وحلق جاف تماماً كأنه تراب المقابر، لكن عقله كان يعمل بصفاء عسكري بارد ومطلق.

الإسرائيلي "العوزي"أخرج خزينة مدفع المتبقي في يده؛ نقر بإصبعه فوق الطلقات.. اثنتا عشرة طلقة في الخزينة، وخزينة كلاشينكوف بها تسع طلقات فقط، وقنبلة يدوية إسرائيلية الصنع نزعها من جعبة المظلي الذي اشتبك معه في الشق الصخري.

ألقى سيد نظرة خاطفة نحو الممر الغربي الوعر الهابط إلى بطن الصحراء.

كان الممر فارغاً، صامتاً، وممتداً في الفراغ. لم يكن يعلم إن كان إبراهيم قد نجح في الوصول إلى خطوط الجيش الثالث، أم عاجلته قذائف الهاوتزر التي دكت المنطقة فجراً وتركت جسده ملقى بين التلال. لم يكن يملك يقيناً واحداً حول مصير رفيقه أو توقيت وصول الدعم. لكن تلك الشكوك لم تكن تعنيه في شيء؛ فالمهمة العسكرية التي أقسم عليها لم تكن مشروطة بنجاة إبراهيم أو وصول طائرات النجدة، بل كانت تقوم على حقيقة واحدة لا تتزحزح: الممر مغلق ما دامت في صدره أنفاس، وكل دقيقة إضافية يُبقي فيها المظليين

مشلولين في بطن الوادي هي حماية لظهر الجيش المصري ومنع لتطويقه.

في الأسفل، أعاد دافيد تنظيم صفوفه بعد الضربة الموجعة التي تلقتها طليعته.

تراجعت القوة إلى أطراف المدى الآمن، ووقف دافيد يراقب واجهة الجبل عبر منظاره الميداني ويداه تشدان على حافة صفيحة نصف المجنزرة بغيظ مكتوم. لم يعد المشهد يحتمل أي استعراض تكتيكي؛ الوقت كان ينفد، وأصوات الاتصالات اللاسلكية من قيادة اللواء الإسرائيلي تحثه على حسم المضيق لفتح محور التقدم قبل أن ترصدهم طائرات الاستطلاع المصرية.

أمر دافيد بتشكيل فصيلة اقتحام ثقيلة من عشرة ثقيل، وزودهم "ماج"جنود، يتقدمهم رشاش بأجهزة رؤية وقنابل دخانية مكثفة، وأصدر تعليماته بقصف تمهيدي مركز بواسطة مدافع الهاون عيار 81 ملم لحرث واجهة الشقوق دون توقف حتى تبلغ القوة حافة المرتفع.

دوت صفارات القذائف في السماء، وانهمرت كالمطر فوق صخور التبة.

تطايرت شظايا الصوان الحادة كالسكاكين، وسقطت كتل حجرية ضخمة أغلقت المربض الأوسط تماماً، وردمت جزءاً من المسار التكتيكي الذي كان سيد يناور عبره. انبطح سيد في تجويف ضيق محفور في باطن الصخرة الخلفية، واضعاً ذراعيه فوق رأسه، يتلقى ركام الحصى والغبار الحارق الذي ملأ رئتيه حتى كاد يختنق.

مع انقطاع القصف الصاروخي فجأة، انطلقت من "الماج"نيران الرشاش الإسرائيلي الثقيل أسفل التبة كالسيل الهادر، لتبقي سيد محاصراً في باطن الأرض بينما تقدمت فصيلة الاقتحام بخطى سريعة ومحسوبة، تصعد المنحدر الحجري الصعب مستغلة سواتر الدخان الأبيض التي غطت السفح.

سمع سيد صوت أحذيتهم العسكرية وهي تفتت الحصى تحت أقدامهم؛ كانوا يصعدون في مسارين متوازيين لإطباق الكماشة على مدخل المغارة: أربعة جنود من اليمين، وستة يتقدمون من اليسار مباشرة خلف الرشاش.

سحب سيد صمام أمان القنبلة اليدوية الإسرائيلية، وثبت جسده خلف نتوء حجري متداعٍ.

لم يلقِ القنبلة عشوائياً؛ انتظر حتى باتت خطوات المجموعة اليسارية على بعد عشرة أمتار فقط، حيث يصبح الارتداد الصخري كفيلاً بتمزيق التشكيل. أطلق القنبلة بحركة خاطفة لترتطم بجدار الصخر وتنحدر مباشرة إلى قاع الشق الصاعد.

دوى انفجار مروع شق جدار الممر، وتطايرت شظايا القنبلة لتلتهم طليعة المجموعة اليسارية، مخلفة صرخات ألم وفوضى عارمة قطعت نسق الصعود تماماً.

استغل سيد سحابة الشظايا والغبار، ونهض بجسده الدامي رافعاً بندقية الكلاشينكوف؛ فتح نيران الرشاش بصليات فردية منتقاة على الجنود الباقين في الميسرة:

«!طَق.. طَق.. طَق»

سقط جنديان آخران برصاصات استقرت في الصدر والعنق، قبل أن تفرغ خزينة الكلاشينكوف وتصدر نقرتها الجافة.

ألقى سيد البندقية الفارغة أرضاً وسحب مدفع "العوزي" للمجموعة الثانية التي باغتته بالصعود السريع من خلف حافة الشق المردوم.

كان المسافة بينه وبين أول مظلي إسرائيلي لا تتعدى خمسة أمتار؛ أطلق الجندي الإسرائيلي صلية من سلاحه اخترقت كتف سيد الأيمن وأطاحت به إلى الخلف، لكن سيد لم يسقط؛ تحامل على كفه المتربة، وضغط على زناد العوزي بيده اليسرى السليمة، ليمطر الجندي المتقدم بسبع طلقات مزقت سترته العسكرية وأردته قتيلاً فوق الصخرة الحاكمة.

حاول الجندي الثاني التراجع لإفساح مجال الرماية لزميله خلفه، لكن سيد أطلق الطلقات الخمس الأخيرة المتبقية في الخزينة، فاستقرت في ساقه وصدره، ليتدحرج الجندي نحو قاع المنحدر.

.نقرت الإبرة المعدنية على حجرة فارغة

نفدت كل طلقة في يد سيد زكريا خليل. لم يبقَ
.معه بارود، ولا حجر، ولا ساتر يقيه

من قاع المنحدر، اندفع آخر جنديين من قوة
الاقتحام، تتبعهما نيران الرشاش الثقيل من
الأسفل التي أمطرت الصخرة بحمم من
.الرصاص الخارق

وقف سيد منتصباً على حافة المرتفع. لم ينحنِ،
ولم يتوارَ خلف الحجر، ولم ينظر إلى الوراء
.باحثاً عن مفر

وقف ممسكاً بالسلاح الفارغ بكلتا يديه كأنه
هراوة صوانية، ووجهه الأسمر العتيد يفيض
بهيبة من لا يقبل الانكسار، وعيناه مسمرتان
في وجوه المهاجمين بنظرة شلت أقدامهم للحظة
.من فرط الهيبة والذهول

زمجر سيد بصوت رخيم زلزل جدران الممر،
صرخة خرجت من أقصى أعماق الصعيد
:لتشق سكون الصحراء

«!الله أكبر» —

انهمر الرصاص عليه من رشاشات المظليين؛ اخترقت رصاصة صدره، وتلتها أخرى في خاصرته وبطنه، فارتج جسده الطاهر بقوة الصدمة. لكنه ظل واقفاً على قدميه ثانية كاملة، كشجرة جميز عتيقة تأبى السقوط، قبل أن يسند ظهره إلى جدار الصوان الشامخ خلفه، وينزلق ببطء وجلال حتى استقر جالساً على التراب، ويداه لا تزالان تقبضان على حديد السلاح فوق صدره.

ارتفعت عيناه الصامتتان نحو زرقة السماء الصافية فوق سيناء، وخرجت آخر أنفاسه مع حشرجة خافتة سالت معها خيوط دم قانية فوق شفتيه، لترتقي روحه الطاهرة مقبلة غير مدبرة، صامدة في الممر حتى اللحظة الأخيرة.

سكنت أصوات الرصاص تدريجياً، وعمّ صمت مطبق وموحش على امتداد التبة، صمت لا يجرؤ أحد على كسره إلا هبوب الريح الجافة التي تثير الغبار فوق الجثث المتناثرة على المنحدر.

صعد دافيد روزنبرغ بنفسه إلى القمة، يتبعه عدد قليل من جنوده الذين خيم عليهم رعب

مشلول، شاهرين أسلحتهم ومصوبين الفوهات نحو كل فجوة، متوقعين خروج شبح جديد من تحت الحجارة.

تجاوز دافيد حطام الصخور وجثث جنوده الذين سقطوا في الاقتحام الأخير، واندفع داخل المغارة العلوية باحثاً بعينيه عن مركز القيادة أو الفصيلة الصامتة التي أذاقت وحدته مرارة الهزيمة وعطلت تقدم كتيبته لساعات طويلة.

لكن الموضع كان خالياً تماماً من أي جندي آخر.

لم تكن هناك فصيلة، ولا دشمة خرسانية، ولا مخازن ذخيرة. فقط ركام هائل من الفوارغ النحاسية للرصاص، وبنادق ملقاة نفدت كل ذخيرتها، وأسلحة جنوده الإسرائيليين التي غُنمت في القتال القريب... وجسد مقاتل مصري أسمر واحد، يجلس في هدوء مهيب مسنداً ظهره للصخر كأنه في استراحة حارس نام بعد أن أدى واجبه كاملاً.

تسمر دافيد في موضعه، وشلت الصدمة أطرافه.

ارتخت قبضته حول مسدسه حتى هوى طرفه إلى الأسفل، وسقطت ملامح التماسك والغطرسة عن وجهه ليحل محلها شحوب كلسي وذهول مطبق. جحظت عيناه وهو يتأمل جثمان سيد الشاب، وجراحه الكثيرة، وأفرولـه المغطى بالدم وتراب الأرض.

— «واحد؟!»

خرج صوت أحد الرقباء مكسوراً ومضطرباً وهو ينظر إلى دافيد في ضياع:

— «كل هذه الخسائر والقتلى من أجل مقاتل واحد؟! كل هذه رجل واحد أوقف الكتيبة كلها؟!»

لم ينطق دافيد بكلمة. تقدم بخطوات بطيئة ومرتعشة، وركع على ركبتيه فوق الحصى أمام جثمان سيد، يحدق في تلك الملامح السمراء التي لم تفارقها العزة حتى بعد خروج الروح. في تلك اللحظة، استشعر دافيد ضآلة كل خططه العسكرية وسطوة آلياته وجنوده أمام روح رجل اختار أن يقف بمفرده كالجبل ليفدي تراب بلاده.

اقترب جنديان من المظليين بغضب وحقد، ورفع أحدهما قدمه ليركل السلاح الملقى بجوار سيد في محاولة للتمثيل بالجثمان انتقاماً لرفاقه.

انتفض دافيد في وجههما، وصرخ باللغة العبرية بصوت هادر أرعب الجنديين:

«ابتعدا عنه! لا يقترب منه أحد!» —

تراجع الجنود إلى الوراء في صمت، ونكسوا أسلحتهم أمام هيبة الموقف.

انحنى دافيد ومد يده المرتجفة برفق ورهبة بالغة، وأغلق جفني سيد زكريا خليل تكريماً لنظرته الشاخصة نحو السماء.

تحسس عنق الشهيد، فوجد السلسلة العسكرية المعدنية (القرص التعريفي) معلقة بخيطها المترب المبلل بدمه. فك دافيد السلسلة بأصابع هادئة ووضعها في جيب سترته العسكرية لتبقى شاهداً على أسطورة محارب لن ينساها طوال حياته، ثم استخرج بطاقته العسكرية المحفورة بالأرقام التي توثق هويته.

التفت دافيد نحو جنوده، وقال بنبرة جافة يخالطها انكسار عميق:

« احفروا له قبراً هنا.. في هذا الشق — الصخري نفسه. هذا الجندي لا يُترك في العراء.. يُدفن بكامل سلاحه وشرفه العسكري.»

بدأت الفؤوس تحفر في صلب صخور سيناء، ليوارى جثمان البطل سيد زكريا خليل في باطن الأرض التي لم يتنازل عن شبر منها، بينما كانت الشمس تسقط نحو المغيب، لتسدل الستار على ملحمة ممر لن يعرف التاريخ العربي مثيلاً لجسارة صاحبها، تاركة وراءها لغزاً مدفوناً في الصخر سينتظر خمسين عاماً حتى ينكشف نوره للعالم.

لغز المفقود

مستشفى المعادي للقوات المسلحة ـــ أواخر نوفمبر 1973

كان بياض السقف الجبسي أول ما اخترق عينيه حين انقشعت ظلمة الغيبوبة؛ بياضٌ مسطح، بارد، وميت، لا يشبه زرقة سماء سيناء المشتعلة بالقيظ، ولا عتمة المغارات الحجرية التي عاش فيها أيامه الأخيرة.

تسلل صوت الأجهزة الطبية الرتيب إلى وعيه المتثاقل؛ صفيرٌ خافت ومنتظم لجهاز قياس النبض، وصرير خفيف لعجلات ترولي معدني يمر في الردهة الخارجية، ورائحة مطهرات كيميائية وشاش مبلل باليود تملأ رئتيه، نافيةً رائحة الكبريت والبارود المحترق التي علقت بأنفاسه طوال أسبوعين من جحيم العراء.

انتفض جسده فجأة، واشتعلت خلايا دماغه بهستيريا الرعب العسكري: «الساتر.. النار.. إحداثيات الممر!»

حاول أن يثب من مرقده، أن يصرخ، أن يزحف على بطنه كما كان يفعل بين فكي الموت في رمال سيناء، لكن صرخة مكتومة انحبست في حنجرته المشروخة حين شلّه ألمٌ حارق هدر في نصفه السفلي؛ كانت ساقه اليمنى ممددة بثقل لا يطاق، محاصرة داخل جبيرة بيضاء ضخمة تمتد من أطراف الأصابع حتى أسفل الخاصرة، وتخترقها أسياخ معدنية من مفاصل الركبة لتثبيت شظايا العظام المفتتة كُبل بها إلى هيكل السرير الحديدي.

الممر!.. يا فندم الإحداثيات.. سيد بيغطي — !ضهري هناك.. الممر مقفول

خرجت الكلمات من بين شفتيه الجافتين كأنها شظايا زجاج مطحون، ويداه المرتجفتان تحاولان التشبث بأي شيء حوله.

اهدى يا ابني.. اهدى يا بطل، حمد الله على — سلامتك.. اهدى خالص.

جاء الصوت نسائياً، رقيقاً وخائفاً عليه. كانت ممرضة عسكرية شابة تضع كفها برفق فوق صدره لتثبته، وعيناها تفيضان بشفقة حقيقية،

بينما كانت تضغط زر الاستدعاء المعلق في جدار الغرفة.

تشنج وجه إبراهيم، وتلفت في أرجاء العنبر كالمذعور؛ كانت الشمس الدافئة تدخل من نافذة زجاجية واسعة تطل على مياه نيل القاهرة الهادئة، والهدوء يعم المكان.. هدوءٌ مطلق لا قصف فيه، ولا طيران ينقض، ولا دوي دانات هاون تمزق الأفق.

الإحداثيات لازم تتبلغ لغرفة العمليات حالاً! — — هتف إبراهيم وأصابعه تتشنج فوق الملاءة البيضاء — الطيران لو متدخلش في الممر قوة العدو هتلتف على ضهر الجيش التالت! أنا لازم أقوم..! فكوا الحديد ده

انفتح باب العنبر بخطوات سريعة ومنتظمة؛ دخل طبيب برتبة مقدم، وإلى جواره ضابط استطلاع برتبة رائد، يرتدي زيه العسكري النظيف وسترته الشتوية الخفيفة التي توحي ببرودة تشرين الثاني (نوفمبر)، وتتدلى من صدره أشرطة نوط الواجب.

تقدم الرائد من حافة السرير، ونظر في عيني إبراهيم المشتعلتين بالهلع والرمال التي لم تبرح ذاكرته، وقال بنبرة عسكرية وقورة وهادئة:

— مفيش بلاغات يا إبراهيم.. ارتاح يا بني، كل حاجة خلصت.

بهتت ملامح إبراهيم، وتجمدت حركته:

— خلصت إيه؟! الحرب دايرة برا.. المظليين بتوعهم كانوا بيقتحموا الممر الصبح.. الصبح بس وسيد كان بيضرب بآخر بنادق الرفاق!

ربت الرائد على كتف إبراهيم بكف ثقيلة، وقال بصوت خفيض وواضح كحد السيف:

— مكنش الصبح يا إبراهيم.. أنت غايب عن الوعي بقالك أسابيع.. إحنا في أواخر نوفمبر.

سكت الضابط لثانية ليدع الكلمات تستقر في ذهن المقاتل، ثم أردف:

— الحرب خلصت.. عبرنا، وحطمنا خط بارليف، ورفعنا العلم على الضفة الشرقية..

ووقف إطلاق النار اتطبق من أسابيع.. إحنا انتصرنا يا ابني.

سقطت الكلمات فوق رأس إبراهيم كصاعقة في ليلة صحو؛ فتح فمه ولم تخرج منه نأمة، وشخصت عيناه في وجه الضابط في ذهول شل كل حواسه:

— انتصرنا؟.. الحرب خلصت؟!

مرت دقيقة كاملة وإبراهيم يحاول هضم فكرة أن العالم استمر، وأن الحرب انتهت والناس تحتفل، بينما هو كان محبوساً في غيبوبة دامت أربعين يوماً بين يدي الموت.

وفجأة، انقشع ضباب الذهول، واشتعلت في صدره شعلة واحدة، حارقة، لا تنطفئ:

— وسيد؟!

قبض إبراهيم بيده السليمة على ذراع الرائد بكل ما تبقى في عروقه من قوة، وخرج صوته مرتعشاً، متهدجاً، يكاد ينفطر:

وسيد زكريا يا فندم؟! مدام خلصت.. سيد رجع؟! في أي مستشفى هو؟! نزل إجازة بلدهم في الأقصر؟! قول لي يا فندم إن سيد عايش!

نكس الرائد رأسه لبرهة، واختفت نبرة النصر من ملامحه، ليحل محلها شحوب عسكري حزين. أخرج من جيب سترته دفتراً صغيراً، ونظر إلى عيني إبراهيم بمرارة صريحة:

— البلاغ اللي وصلت بيه وإنت بتنزف في أول المعركة اتنفذ بحذافيره وقتها.. الطيران والمدفعية التقيلة طلعوا في طلعات متتالية ودكوا الممر دك جراحي كامل.. المنطقة كلها اتساوت بالتراب والصخور انهارت عشان نقطع طريق الرتل المعادي وميدخلش عمق سيناء.. الممر اتدمر تماماً ومبقاش له أثر.

ابتلع إبراهيم ريقه، وبدأت الدموع الحارقة تشق مجراها فوق خديه الشاحبين:

— ولما القوات دخلت بعد وقف إطلاق النار؟ لما مشطوا الممر؟!

هز الرائد رأسه بأسى ونبرته تزداد خفوتاً:

كتيبة الاستطلاع دخلت المكان كله ومسحته — شبر شبر.. ركام، وصخور متفحمة، ومدرعات العدو محروقة ومقلوبة.. لكن ملقيناش أي أثر لسيد.

ملقيتوش أثر إزاي؟! — صرخ إبراهيم — بصوت شق صمت العنبر — سيد كان هناك! كان واقف مكانه!

مفيش جثمان يا إبراهيم.. مفيش أثر حي، — ولا جثة شهيد، ولا حتى خوذة أو متعلقات تدلنا كان فين.. التبة كلها اتسوّت بالأرض تحت القصف وركام الجبل ابتلع كل حاجة.. ملناش غير السجلات الرسمية.

فتح الرائد الدفتر الصغير، وقرأ بصوت جاف يخفي قهراً عميقاً:

المجند: سيد زكريا خليل.. سلاح الصاعقة " — المصرية.. يُقيد رسمياً تحت بند: مفقود عمليات حرب أكتوبر 1973".

تهاوى رأس إبراهيم على الوسادة البيضاء كأن رصاصة استقرت في نخاعه.

أغمض عينيه بقوة، فاستحضر صورة سيد وهو يتوارى وراء الساتر الصواني، ويأمره بالزحف نحو الغرب دون أن ينظر للوراء. تدفقت دموعه بصمت يمزق القلوب، واضعاً يده فوق عينيه لينكر هذا البياض وهذا النصر الذي تركه وحيداً بلا رفيق.

همس إبراهيم بصوت مكسور، خنقته العبرات، وهو يحدق في فراغ الغرفة:

— مفقود؟! سيد مش مفقود.. الأرض مش هتبلع سيد.. سيد واقف هناك في الممر ومستنيني أرجع له.. هقول إيه لأمه وأهله في الأقصر؟ أقول لهم سيد بقى سطر في الدفاتر؟!

لم يملك الرائد ولا الطبيب رداً؛ ربتا على كتفه في صمت مهيب، وخرجا وأغلقا الباب برفق، تاركين إبراهيم وحيداً في مواجهة ساقه المكبلة بالحديد، وجرح روحه الغائر الذي سيبقى نازفاً.

وخز الذاكرة

إحدى ضواحي برلين — خريف 2023

كانت أوراق شجر الدلب الصفراء تتساقط ببطء خلف زجاج النافذة المزدوج، لترتطم برصيف شارع هادئ في إحدى ضواحي برلين الباردة. في الداخل، لم يكن يقطع صمت الغرفة الواسعة إلا تكتكة ساعة حائط خشبية قديمة، وصوت لهاثٍ متقطع لرجلٍ بلغ من العمر عتياً يلفظ فصوله الأخيرة فوق فراشه الطبي.

تمدد دافيد روزنبرغ، مدثراً جسده النحيل ببطانية صوفية ثقيلة.

كانت أصابعه، التي طالما عزفت سوناتات بيتهوفن وشوبان في شبابه قبل أن تجبرها رمال سيناء على التشبث بالزناد، متيبسة الآن بفعل الروماتيزم والوهن، وعروقها الزرقاء بارزة ترتجف بضعف لا يرحم. بجوار الفراش، رقد بيانو غراند أسود فخم، مغلق الغطاء، تراكمت فوق سطحه الأملس طبقة

رقيقة من الغبار تنبئ بأنه لم يُفتح منذ عقود؛ فمنذ ذلك الضحى في أكتوبر 1973، لم تعد الموسيقى قادرة على ملء الفراغ، وصار كل وترٍ يلمسه يستدعي في خياله صدى طلقات صوانية ونظرة عينين لا تنكسران.

تحسس دافيد قفصه الصدري؛ كان يعلم أن قلبه المنهك يوشك على التوقف. لم يكن يخشى الموت بقدر ما كان يخشى شيئاً واحداً: أن يأخذ سره معه إلى القبر.

"إلياس"جلس بجانبه ابنه ، ممسكاً بيده الباردة، وعيناه ممتلئتان بقلق مكتوم وهو يراقب اضطراب أنفاس أبيه.

فتح دافيد جفنيه بجهدٍ مضنٍ، ونظر في عيني ابنه بحدة مفاجئة، وصوت حاسم شق صمت الغرفة:

إلياس.. اسمعني جيداً.. لم يعد في الوقت — متسع.

أنا معك يا أبي.. اهدأ، لا تجهد نفسك —.

لا وقت للهدوء —!

أشار دافيد بأصابعه المرتعشة نحو خزانة خشبية عتيقة في الزاوية:

افتح الدرج السفلي.. أحضر الحقيبة الجلدية — السوداء.. فوراً.

نهض إلياس بحذر وفتح الدرج؛ في قاعه رقدت حقيبة عسكرية من الجلد السميك، مغلقة بإبزيم نحاسي عتيق علاه الصدأ. حملها ووضعها على الفراش بجوار يد أبيه.

أخرج دافيد من جيب سترته مفتاحاً صغيراً، وفتح صندوق أبنوس صغير كان بداخل الحقيبة. رفع الغطاء ببطء كمن ينبش في تابوت مغلق منذ نصف قرن.

في قاع الصندوق، رقدت السلسلة العسكرية المعدنية (القرص التعريفي)، يعلوها صديد خفيف، وبقايا بطاقة ورقية عسكرية مصرية باهتة الحبر، لكن الأرقام والحروف المحفورة عليها كانت لا تزال واضحة كحد السيف:

«سيد زكريا خليل — الصاعقة المصرية».

التقط دافيد القرص المعدني بأطراف أصابعه؛ كان المعدن بارداً، لكنه في كفه بدا كقطعة جمر حية التقطها لتوه من رماد الممر. انغلقت عيناه الدامعتان، فعادت إليه الصورة واضحة كأنها حدثت البارحة: ركام الفوارغ النحاسية، رائحة البارود، الجسد الأسمر الشامخ المستند إلى حجر الصوان، والعينان المفتوحتان نحو زرقة السماء دون خوف.

خمسون عاماً مرت، ووجه ذلك المقاتل لم يغادر أحلامه ليلة واحدة. كان يراه كلما أغمض عينيه، ويراه حين صفق له جمهور المسارح، ويراه في عيون أبنائه، كأنه قيدٌ غير مرئي يذكره بأنه يعيش حياةً سُرقت من بطن ذلك الممر.

فتح دافيد عينيه، وأخرج من الحقيبة أوراقاً مصقولة كتبها بيده في الأيام الماضية بخط متماسك، وبدأ يقرأ على مسمع إلياس بصوت مبحوح مشبع بالمرارة والرهبة:

إلى من يهمه الأمر في جمهورية مصر "* < العربية..

أنا دافيد روزنبرغ، ضابط سابق في سلاح < المظلات الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر 1973. أكتب هذه السطور وأنا على مشارف نهاية حياتي، مدفوعاً بضمير يرفض أن يموت قبل أن يرد الحق لأهله.

في يوم 12 أكتوبر 1973، عند مدخل الممر < الجبلي الأوسط في سيناء، واجهت كتيبتي مقاومة مستميتة أوقفت تقدمنا وكبدتنا خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. كنا نظن طوال ساعات الاشتباك أننا نقاتل نسقاً عسكرياً كاملاً وفصيلة صاعقة محصنة.

ولكن عندما اقتحمنا الموقع بعد معركة < شرسة، لم نجد سوى مقاتل مصري واحد فقط.. شاباً أسمر قاتل بمفرده بأسلحته وأسلحة جنودنا حتى آخر طلقة، ورفض الاستسلام حتى ارتقى في مكانه مقبلاً وسلاحه بيده.

احتراماً لشجاعته الاستثنائية التي لم أرَ لها مثيلاً في حياتي العسكرية، منعنا المساس بجثمانه ودفنته بيدي وبمساعدة اثنين من جنودي في شق صخري برمال الممر،

واحتفظت بقرصه التعريفي وبطاقته العسكرية طوال هذه العقود كشاهد على هذا الشرف.

أرفق لكم مع رسالتي خريطة طوبوغرافية دقيقة لموقع الدفن بين صخور الممر، وأعيد إليكم متعلقات بطلكم: سيد زكريا خليل، لتوضع في المكان الذي يليق بذكراه.. فالتاريخ لا يكتمل إلا بالحقيقة."*.

طوى دافيد الرسالة والخريطة، ووضعهما مع القرص المعدني والبطاقة العسكرية داخل مظروف سميك مختوم، ثم أعاد المظروف إلى الحقيبة الجلدية وأغلق إبزيمها بيدين ترتجفان.

شد دافيد بكلتا يديه الواهنتين على ساعد ابنه بقوة مباغتة، وثبت نظراته في عينيه:

هذه وصيتي الأخيرة لك يا إلياس.. أمانة — معلقة في رقبتك حتى تواري جثماني التراب.

ما الذي تريده مني بالضبط يا أبي؟ — — سأله إلياس بصوت مخنوق وذهول مما سمعه للتو.

فور أن أغادر هذه الدنيا.. خذ هذه الحقيبة — وتوجه بها مباشرة إلى السفارة المصرية هنا في برلين. سلّمها للقنصل أو الملحق العسكري يداً بيد.

تهدج صوت العجوز واختنق بدموع حارقة سالت فوق تجاعيد وجهه الشاحب:

قل لهم.. دافيد روزنبرغ يعيد بطلكم إليكم.. — لا تدع هذا المقاتل يظل مفقوداً في دفاترهم.. أعده إلى أهله وتراب وطنه.. عاهدني يا إلياس، لا تدعني أموت وهذا الذنب يطارد روحي في الظلام!

أمسك إلياس يد والده وقبّلها والدموع تنحدر من عينيه أمام انكسار هذا المحارب العجوز:

أعدك يا أبي.. أقسم لك، سأحمل الحقيبة إلى — السفارة بيدي كما أمرت، ولن يضيع حقه.

هدأت أنفاس دافيد تدريجياً، وارتخت قبضته عن معصم ابنه.

أسند رأسه الثقيل إلى وسادته، ولأول مرة منذ خمسين عاماً، ارتسمت على ملامحه راحة

ساكنة غريبة؛ كأن صدى الطلقات في الممر قد خمد أخيراً، وكأن الروح السمراء الشامخة هناك بين جبال سيناء قد أومأت له بأن الحقيقة في طريقها إلى النور.

رد الاعتبار

الأمانة العامة لوزارة الدفاع ـــ القاهرة، خريف 2023

كانت القاعة التاريخية في مقر القيادة العسكرية غارقة في هيبة استثنائية وسكون وقور تفرضه جدران شهدت كبرى قرارات الوطن. ضوء الصباح الخريفي البارد ينسكب عبر النوافذ العالية ذات الستائر المخملية الداكنة، ليلقي بظلاله الرصينة فوق طاولة الاجتماعات الكبرى المصنوعة من خشب الماهوجني العتيق. حول الطاولة، جلس نخبة من كبار قادة القوات المسلحة، ومدير إدارة السجلات العسكرية، وقادة من سلاح الصاعقة وهيئة العمليات، وكل الوجوه كانت تتشح بجدية صارمة تخفي ترقباً عميقاً لما تحمله اللحظة.

انفتح الباب الخشبي الثقيل بهدوء، ودخل المقاتل القديم إبراهيم.

تجاوز الرجل السبعين من عمره، وكان جسده النحيل شاهداً حياً على كل ما جرى؛ شعره اشتعل شيباً ناصعاً، وخطوط وجهه الصعيدي

الأسمر حفرتها خمسة عقود من المكابدة والانتظار، وظهره منحنٍ قليلاً تحت وطأة السنين. كان يتوكأ على عصا خشبية صلبة، وتخطو ساقه اليمنى، التي استقرت فيها شظايا الهاوتزر عام 1973، عرجاً أبدياً لم تمحه كل الجراحات القديمة. لكن عينيه الغائرتين كانتا تشعان ببريق ذلك الجندي الذي زحف يوماً وسط الجمر لينقذ جيشه.

بمجرد أن خطت قدماه داخل القاعة، وقف لواء أركان حرب رئيس الجلسة مستقيماً في بادرة انضباط وتقدير نادرين، ووقف معه كل القادة في تتابع عسكري مهيب. أشار اللواء بيده نحو المقعد المتصدر في مواجهة المنصة:

شرفتنا يا عم إبراهيم.. اتفضل. طلبناك — لأمر يخصك ويخص رفيقك.. يخص سيناء، ودم نزل في الممر في أكتوبر 73.

جلس إبراهيم ببطء، ووضع كفيه المرتجفتين فوق المقبض النحاسي لعصاه، وقلبه يخفق بعنف داخل قفصه الصدري كأن دوي القنابل عاد يتردد في أذنيه. كان يتلفت بين الرتب العسكرية الكبيرة ووجوه الضباط التي ترنو إليه

برأفة ممزوجة بإجلال، متسائلاً في صمت عما استدعى استحضار ماضٍ ظن أنه دُفن في بطون الدفاتر ونسيه العالم.

في منتصف الطاولة، رقد صندوق بريدي عسكري مصفح، خُتم بالشمع الأحمر الدبلوماسي، وصل لتوه في حقيبة خاصة من سفارة مصر في برلين.

تقدم عقيد من القضاء العسكري بخطوات ثابتة وارتدى قفازات بيضاء؛ وبمشرط دقيق، فضّ الأختام الرسمية بحرص شديد، ثم فتح الغطاء الخارجي. ساد القاعة صمت مطبق لدرجة سُمع فيها صرير الورق واضطراب أنفاس الحاضرين.

أخرج العقيد مظروفاً أبيض كبيراً يحمل أختاماً دبلوماسية، ثم وضع فوق قطعة قماش مخملية سوداء صندوقاً خشبياً صغيراً من الأبنوس الداكن. وبأصابع حذرة كمن يلمس ذخائر مقدسة، رفع غطاء الصندوق، وسحب منه سلسلة معدنية صدئة يعلوها قرص تعريفي عسكري قديم تآكلت حوافه، وبقايا بطاقة تحقيق شخصية ورقية مبللة بآثار الزمن، لكن الأرقام

والحروف المحفورة عليها باللغة العربية كانت لا تزال واضحة كحد السيف:

«سيد زكريا خليل ـــ الصاعقة المصرية».

تسمرت عينا إبراهيم في لمعان القرص المعدني.

في تلك اللحظة بالذات، سقطت العصا الخشبية من يده لترتطم بأرضية القاعة برنين مكتوم، كأن الزمن توقف تماماً عند ظهيرة الثاني عشر من أكتوبر 1973. جحظت عيناه، وارتجف فكه، وشلت الصدمة أطرافه لثوانٍ قبل أن يشهق شهقة مقهورة انخلع لها قلب كل من في الغرفة.

مد يديه المتيبستين ببطء ورهبة بالغة، تتلمسان السلسلة العسكرية الباردة كأنه لا يصدق أن عينيه تريانها حقاً. وحين لامست أصابعه معدن القرص، تحسس حفر الحروف بأنامله المشققة، ثم رفعه فجأة وضمه إلى صدره بكل ما بقي فيه من رمق، وانحنى بجسده للأمام منفجراً في بكاء مرير، طوفان من الدموع الحارقة والنشيج

المكتوم الذي حبسه خمسين عاماً في عتمة الذاكرة.

سيد!.. السلسلة أهي.. سيد رجع —!

خرج صوته مبحوحاً، مشروخاً بالحرقة والقهر القديم:

والله العظيم ما كنت بخرّف.. خمسين سنة — وأنا بقول للدنيا كلها سيد مسبش سلاحه.. سيد كان واقف زي الطود بيغطي خروجي عشان البلاغ يوصل.. خمسين سنة وصورته وهو في وش النار مش بتفارق نومي، والناس تقولي مفقود ومات في القصف وإنت جالك صدمة عصبية من الإصابة.. مكنتش موهوم يا فندم! مكنتش ببالغ.. سيد فدانا كلنا ومات راجل!

وقف اللواء رئيس الجلسة، واقترب من إبراهيم واضعاً كفه الثقيلة فوق كتفه المنحني في حنو أبوي، بينما كانت الدموع تترقرق في أعين ضباط الصاعقة الحاضرين الذين أطرقوا برؤوسهم في خشوع هائل أمام مرأى الوفاء العسكري العابر للزمن.

تنحنح العقيد، وفتح المظروف الأبيض، وبدأ يتلو بصوت عسكري جهوري لكنه مشحون بالتأثر، النص الكامل لشهادة الضابط الإسرائيلي الراحل دافيد روزنبرغ، والتي دونها بيده قبل موته:

إلى قيادة القوات المسلحة المصرية.

أنا دافيد روزنبرغ، ضابط سابق في سلاح المظلات الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر 1973. أكتب هذه السطور بوعي كامل وأنا على حافة القبر، لرد دين من الشرف ظل يثقل ضميري لخمسين عاماً كاملة.

في 12 أكتوبر 1973، عند مدخل الممر الأوسط الحاكم بسيناء، تصدت كتيبتي لمقاومة مستميتة أوقفت تقدمنا وكبدتنا خسائر فادحة وشلت حركتنا طوال ساعات النهار. كنا نظن على مدار المعركة أننا نقاتل نسقاً دفاعياً كاملاً وفصيلة صاعقة محصنة بأسلحة ثقيلة.

ولكن عندما أمطرنا التبة بالقذائف واقتحمنا الموقع في النهاية، صعقنا جميعاً.. لم نجد وراء الصخرة سوى مقاتل مصري واحد فقط. شاب

أسمر، جريح في عدة مواضع، قاتل بمفرده بأسلحته وأسلحة جنودنا التي غنمها حتى آخر طلقة، ورفض الاستسلام حتى ارتقى وهو جالس وسلاحه الفارغ في صدره ووجهه نحو السماء.

احتراماً لهذه البسالة الأسطورية التي لم أشهد لها مثيلاً، منعت جنودي من المساس به، ودفنته بيدي وبمساعدة اثنين من رجالي في شق صخري بالممر بكامل سلاحه وشرفه العسكري، واحتفظت بقرصه التعريفي وبطاقته العسكرية طوال حياتي شاهداً على أننا واجهنا أسطورة.

سيد زكريا خليل لم يكن مفقوداً في العراء.. بل كان أسداً يحرس ممره.

خيم على القاعة صمت أثقل من دوي المدافع؛ صمت تلاشت معه حيرة خمسين عاماً، وارتفع عن كاهل إبراهيم ثقل الوجع والشكوك التي عاشها وحيداً. اعتراف قائد القوة المعادية الموثق لم يترك مجالاً للشك، وباتت كل كلمة

نطق بها إبراهيم وهو ينزف في مستشفى المعادي قبل نصف قرن حقيقة ناصعة تعانق المجد.

عاد اللواء رئيس الجلسة إلى منصته، واعتدل في وقفته بانضباط عسكري صارم، وفتح ملفاً رسمياً أخضر وُشح بالنسر الجمهوري الذهبي، ثم رفع صوته بقرار القيادة العامة للقوات المسلحة:

بناءً على المقتنيات العسكرية المستردة، " — واعترافات قائد القوة المعادية، وشهادة زميل الميدان المجند إبراهيم..

يُعدل القيد العسكري للمجند: سيد زكريا خليل، من سجلات المفقودين إلى: شهيد بطل حرب أكتوبر المجيدة..

ويُمنح أرفع درجات التكريم العسكري: نوط الشجاعة العسكري من الطبقة الأولى، ووسام نجمة سيناء..

وتخليداً لبطولته التاريخية الفذة التي وقف فيها فرداً يذود عن وطنه ضد كتيبة كاملة، يُطلق

عليه رسمياً في السجلات والمحافل العسكرية
".«لقب: «أسد سيناء

دوت الكلمات في أرجاء القاعة، ورفع جميع القادة والضباط أيديهم بالتحية العسكرية في اتجاه السلسلة ونحو إبراهيم، في مشهد ارتجفت .له الأبدان

أغمض إبراهيم عينيه، وسالت دمعة ساخنة صافية مسحت كل مرارة الماضي؛ كان يشعر في تلك اللحظة أن صخور سيناء قد انفرجت أخيراً لتنطق بالحقيقة، وأن روح رفيقه تبتسم له من وراء الغيب مطمئنة، راضية بأن الأمانة عاد إلى ذاكرة وطنه "أسد سيناء"كُتبت، وأن .حياً لا يموت

نيل الأقصر

قرية خزام ـــ الأقصر، خريف 2023

كان الهواء دافئاً وقت الأصيل، وتلال الجبل الغربي تتوشح بلون الشفق مع ميلان قرص "خزام"الشمس نحو المغيب. انشق هدوء قرية عن موكبٍ عسكري ووطني مهيب؛ سيارات تابعة لقيادة المنطقة الجنوبية العسكرية، وحافلات تقل وفداً من ضباط سلاح الصاعقة، يصحبهم المقاتل القديم إبراهيم، متوكئاً على عصاه، وفي حجره الصندوق المخملي الموشح بنسر الجمهورية.

اصطف أهل القرية على جانبي الطريق الترابي المؤدي إلى بيت عائلة خليل، واختلطت الزغاريد بهتافات الحاضرين في مشهدٍ تأخر خمسين عاماً؛ عودة رسمية لمقاتل أدى واجبه حتى الطلقة الأخيرة.

توقف الموكب أمام البيت، وخرج رجلٌ مسن يحمل في ملامحه شبهاً كبيراً من سيد؛ كان "أحمد" شقيق سيد، وبجواره وقفت "زينب".

امرأة وقورة، يلف رأسها شال أسود، وفي عينيها لوعة قديمة هدأت مع تعاقب السنين. كانت تقف إلى جوار أحمد كزوجة وشريكة عمر؛ فحين انقطعت أخبار سيد وطال غيابه واعتُبر مفقوداً في الحرب، جمعتهما الأيام وظروف البيت ليحملا معاً عبء الحياة، دون أن يغيب طيف صاحب الوعد الأول عن جدران الدار.

ترجل الضباط ووقفوا في انضباط عسكري، مؤدين التحية. تقدم إبراهيم بخطوات بطيئة بسبب عرج ساقه القديم، حتى وقف في مواجهتهما.

ساد صمتٌ مطبق؛ فتح إبراهيم الصندوق المخملي بيدين ترتجفان وقدمه نحوهما. في الداخل، لمع وسام نجمة سيناء ونوط الشجاعة، وإلى جوارهما رقدت السلسلة العسكرية والقرص التعريفي المترب، وبطاقة تحقيق الشخصية:

سيد زكريا خليل — الصاعقة المصرية.

شهقت زينب، ومدت يدها المرتجفة لتتناول القرص المعدني. تحسست الحروف المحفورة عليه، ثم التفتت إلى أحمد الذي انهمرت دموعه في صمت، واضعاً يده فوق كتفها بحنوٍ يحمل وجع الفقد والوفاء المشترك لذكرى سيد.

رفعت زينب السلسلة وقبلت المعدن، ثم ضمتها إلى صدرها والدموع تنحدر فوق وجنتيها، وهمست بصوت مبحوح يحمل عهد نصف قرن:

— رجعت يا سيد.. رجعت يا غالي وراسك مرفوعة.. الوعد مانكسرش يا سيد.

اقترب إبراهيم خطوة، وقال بصوت خرج ثابتاً رغم تأثره:

— سيد مرحش هدر يا حاجة زينب.. سيد مكنش مفقود، ولا هرب، ولا تاه في الصحراء.. سيد وقف قدام قوة كاملة، والعدو نفسه هو اللي شهد ببطولته ودفنه احتراما في دفاتر "أسد سيناء"لشرفه.. سيد اتسجل الجيش ورجع حقه كامل قدام الدنيا كلها.

نظرت زينب إلى الأفق، وقالت بصوت متهدج لكنه ملؤه الرضا واليقين:

— الحمد لله.. برد قلبنا بعد السنين دي كلها.. ارتاح يا سيد، بلادك عرفت قيمتك، وعشت راجل ومت بطل.

مع حلول الغروب وانشغال الحضور بالمراسم، ابتعد إبراهيم في هدوء نحو طرف القرية حيث شاطئ النيل.

جلس فوق صخرة هادئة على الضفة، وأسند ذراعيه إلى مقبض عكازه، وعيناه تراقبان مجرى الماء الهادئ. هبت نسمة باردة حركت ثيابه، فشعر بخفة في صدره لم يعهدها من قبل؛ كأن ثقل نصف قرن من الانتظار والصمت قد انزاح تماماً.

على صفحة النهر، استعاد وجوه رفاقه في كتيبة الاستطلاع كما كانت في خنادق القتال؛

رأى فتحي بملامحه الصارمة والغضب الثائر الذي كان يشتعل في عينيه كلما نظر نحو خط بارليف طالباً للثأر،

ورأى بيشوي بجرأته الميدانية ويديه الماهرتين اللتين كانتا تضمدان الجراح وتنتزعان المصابين من فك الموت تحت وابل الرصاص،

ورأى سيد.. واقفاً بملامحه الحازمة وبندقيته في يده، يرمقه بنظرة رضا وسلام كأنه يخبره بأن الأمانة وصلت والعهد قد تم.

أغمض إبراهيم عينيه في سكينة تامة، بينما استمر النيل في جريانه الأبدي، حاملاً ذكرى رجال ثبتوا في مواقفهم ولم تنكسر لهم راية

خاتمة توثيقية

تظل قصة البطل المجند سيد زكريا خليل، ابن قرية خزام بمحافظة الأقصر، إحدى أروع ملاحم الفداء في تاريخ العسكرية المصرية الحديث خلال حرب أكتوبر 1973.

طوال ثلاثة وعشرين عاماً، ظل اسم سيد مقيداً مفقود "في سجلات القوات المسلحة تحت بند ، حتى عام 1996 حين اعترف قائد "عمليات القوة الإسرائيلية بشجاعته التي عطلت تقدم

سرية مظلات كاملة بمفرده بعد استشهاد رفاقه في كمين الممر الصخري شرق القناة.

وسلّم الضابط متعلقات الشهيد الشخصية — بطاقته العسكرية وخطاباً لم يكتمل لوالده وسلاحه — إلى السفارة المصرية في ألمانيا، مشيداً ببسالته الاستثنائية التي دفعته لدفنه بنفسه وإطلاق 21 طلقة تحية عسكرية لروحه وقت المعركة.

وبتوجيهات من القيادة العامة للقوات المسلحة، ، ومُنح اسمه "شهيد بطل"عُدل قيده رسمياً إلى نوط الشجاعة العسكري من الطبقة الأولى ووسام نجمة سيناء، ليخلد التاريخ ذكراه في ضمير الأمة بلقب: «أسد سيناء».